مملكة العبيد

(تمرد)

رواية

نزار الكردي

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: مملكة العبيد
المؤلف: نزار الكردي
الطبعة: الاولى
تصنيف الكتاب: رواية
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
التدقيق اللغوي: سكون لخدمات الكتب
الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي
رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢٢٦٣٩
الترقيم الدولي: ٠-٥٣-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد عز الدين

المدير العام
صبرينة غلمي

مدير التنفيد
جلال عز الدين

+٢ ٠١٠٩٥٦٠٠٠٠٧
beyond.dbh@gmail.com
www.facebook.com/beyond.PDH

إهداء

إلى أبي الذي أبى أن يكون عبدا في مملكة العبيد فمات وهو يحلم بالحرية.

نزار الكردي

في القرن الواحد والعشرين، في زمن الإنترنت والستالايت والتليفونات الذكية والطائرات الشبح وناطحات السحاب والأبراج العائمة، في زمن جمعيات حقوق الإنسان و الجمعيات الأهلية والخيرية، ما زال هناك عبيد، عبيد للفتات، أنا واحد منهم.

~~~~~~

نعم أنا من مملكة الموتى
يسحرني بوق الكاهن
يلجمني سوط (البصاص)
عبد للفتات
أنا الخطيئة ولست الخلاص
حى في مقبرة
ميت محروم من تابوت..

الجزء الأول

١

الرعد يصرخ، فيضرب البرق بسياطه قلب الليل. الرعد يصرخ فينتشر الضوء هناك مع صوت الكاهن الأكبر في معبده:

- اصرخ أكثر
وتمخض بالنور علينا
أشعل زيت قناديل المملكة الحية
اضرب قلب البحر ببرقك
وتمخض بالشمس قوية
يا صوت إلهي النافذ داخل مملكة الأسياد
احمينا من عبد تملؤه الأحقاد
واملأهم رعبا في نصف المملكة الميت
يا صوت إلهي النافذ داخل مملكة الأسياد

الرعد يصرخ، فتنتشر النار هنا مع أنشودة العجوز الحكيم في بيته:

- يا صوت إلهي النافذ في نصف المملكة الميت
الناس نيام
يلتحفون البرد بلا أحلام
لا شيء لديهم إلا الوحل..
وظلمة أعوام
يا صوت إلهي النافذ في نصف المملكة الميت
رفقا أكثر بالأيتام

٢

بيت على مشارف "هنا" رفع رايته البيضاء في وجه الريح والبرد، ما عاد يحتمل الصفع ولا الجلد، نخر السوس أخشابه وأذاب المطر خليط قوالبه، فانكفأ على وجهه يتحسس صدر الأم التي لم تحنُ عليه يوما، إلا غرفة شد أزرها لوح خشبي، لا يدري المقيم به من أين جاء أو لماذا؟ وفتيل ضوئه يقاوم الموت ببعض الدهن ويبعث الخوف في النفس أكثر من الظلام. قطعة من الخيش للجلوس يوضع تحت أطرافها بعض القش للنوم، النوم بوضعية القنفذ، فقطعة الخيش لا تتعدى نصف طوله. رجل عجوز بملابس بالية، وجه نحيف بأنف مدبب، شفتان جافتان متشققتان لكنهما تنبتان بالبساتين، عينان غائرتان ضيقتان تتسعان للمدى، قلب يقابل كل أحقاد مرضى النفوس بسلام دائم وكل كره المستعلين بحب. بين يديه صبي يحمل نفس ملامحه كأنهما توأم جمعت بينهما التفاصيل وباعدت بينهما السنون. هذا الصبي الأمانة التي كانت توضع عنده في كل صباح وتسترد منه عند حلول الليل حتى جاء ليل لم تسترد منه، فالأب والأم اللذان كانا يعملان في تكسير وحمل الأحجار على العربات "هناك" ، لم يعودا. ماتا هناك كالكثيرين من "هنا" ماتوا "هناك" . صحن صغير به القليل من قطع الخبز بالماء فأسنان العجوز لا تقوى على الطحن. الصبي نائم على قطعة من القماش جاء بها العجوز خصيصا له من بيوت "هنا" بها ثقب، اثنان، ثلاثة لكنها أحن من قطعة الخيش.

العجوز ينشد للطفل:

- الظلمة وحش أسطوري
تقتات هنا
بمخالب تنين همجي
تنهش أضلعنا
بصراخ بالخوف الأبدي
تطمس أعيننا

لكن لا تخشَ يا ولدي
ما دمت هنا.
الصبي بين يدي العجوز الحكيم في طرقات "هنا" ، يخطو خطوه، يتعلم هدوءه ويقلد ابتسامته الصافية في وجه العجائز والأطفال والمرضى والضعفاء، فلم يبقَ سواهم "هنا" والجميع يعمل في مزارع ومحاجر "هناك" يجمعون لهم خيرات الأرض والجبل من طلوع الشمس لغروبها. لا راحة في قاموس نصف المملكة هناك لمن يسمونهم العبيد ولا طعام إلا بحد لا يصل إلى الكفاف، فالقاعدة الأولى عند الأسياد للعبيد.. لا تشبع العبد ولا تجوعه.. إجعله يبحث طيلة حياته عن الكفاف.. الإلهاء بالرزق.. حتى لا يملك العبد الوقت ولا القوة للبحث عن أشياء أخرى كالمعرفة بحقوقه والطلب بها. يموت من يموت "هناك" ويعود منهم من يعود، فلا فرق بين الموت والحياة للعبيد عند الأسياد. يموت عبد يأتي مكانه عبد جديد، والكل في نصف المملكة هنا ميت.
في أحد المنحنيات الضيقة وبين أكوام القمامة، يرى اليتيم ثلاثة من الصبية يلعبون فتتحرك في داخله فطرة اللعب ويرى الحكيم ذلك في عينيه فيسمح له بالذهاب إليهم. يتحرك اليتيم ببطء وخجل نحو الصبية للعب معهم فيلاحظ خجله أحدهم فيشير إليه بالقدوم ليرفع عنه الخجل ويبدأ معه التعارف.
- ما اسمك؟
- فاراس.
- وأنت؟
- كيروس.
- أنا نيبال.
- وأنا راحال.
- مرحبا بك بيننا يا فاراس.
يبدأ الصبية اللعب بلا شيء، فقط الجري والوثب والاختباء وراء البيوت المتهالكة وفي المنحنيات الضيقة وخلف أكوام القمامة، تعلو وجوههم الفرحة ويسمع المدى ضحكاتهم. يجلس العجوز ساندا ظهره لأحد

الحوائط يراقب لعبهم ويستمتع بقلوبهم الصافية التي لم يحتلها الحزن ونبرة أصواتهم التي لم يتمكن منها اليأس. ينتهي الصبية من اللعب ثم يشكلون دائرة مع العجوز الحكيم ينتظرون كسرات الخبز الناشف وكلمات العجوز اللينة. يعطي العجوز لكل صبي كسرة خبز ويبدأ في سرد حكاية من حكاياته التي اعتاد أن ينسجها للأطفال للترويح عنهم ومنحهم حكمة جديدة، عسى أن يخرج منهم من يحمل راية العبيد نحو التحرر. ينتهي العجوز ثم يقوم ممسكا بيد فاراس بعد أن ألقوا تحية الوداع على الصبية الثلاثة متوجهين إلى حجرتهم على مشارف "هنا" .

يتكرر لقاء الصبية مع العجوز الحكيم وتتكرر الحكايات وفي كل حكاية حكمة تتغذى بها عقولهم وكسرة خبز تقوي بها أجسامهم. كبروا جميعا وصاروا فرادى بلا ظهر يحمل عنهم بعض همومهم ولا يد تداوي لهم أوجاعهم بعد أن فقد كل واحد منهم من لديه إما بمرض من الأمراض الكثيرة أو في سجن من سجون التعذيب لكلمة قالها أو تنهيدة خرجت من صدر مكلوم في نصف المملكة هنا أو حادثة عمل في محاجر "هناك". لم يجدا نيبال وراحال بد إلا العمل في نفس المكان الذي قتل والديهما لكسب قوت يومهما فعمل نيبال في مزرعة للبقر وراحال في أحد المحاجر لسكان نصف المملكة هناك، أما فاراس مع معلمه لا يفارقه أبدا ويجتمع مع أصدقائه ليلا في بيت العجوز الحكيم لينهلوا من حكمته ويتصبروا بكلماته على مر "هنا" وظلم "هناك" وحال الناس هنا وحالهم هناك. أما كيروس هرب من نصف المملكة هنا بعد أن صفع أحد البصاصين، فشخصية كيروس تأبى الركوع لأحد. أثر غياب كيروس في فاراس أكثر من باقي الأصدقاء، فبنية فاراس الضعيفة وفطرته التي تأبى العنف جعلته عرضة لمضايقات الناس وبطش البصاصين، فكان كيروس الذراع القوية التي تحمي فاراس من بطش البصاصين وأحيانا أخرى ظلم الناس في نصف المملكة هنا، فطبيعة أهل هنا.. يتظالمون فيما بينهم ولا يستطيعون منع الظلم عنهم من هناك.

٣

الكاهن الأصغر، كاهن المعبد الصغير الموجود على مشارف "هنا" بعباءته السوداء ورأسه الأقرع المنقوش عليها الحروف الغريبة، حروف الإله الأعظم. بوقه الإلهي الذي يسحر آذان الناس ويسلب عقولهم. من حوله البصاصون بسياطهم الطويلة يوفرون له الحماية ويرهبون أهل نصف المملكة. البطش باسم الإله وهل هناك أشد من هذا لاستعباد الناس؟
يجوب أحد الطرقات الضيقة نافخا في بوقه بالكلمات السحرية المستوحاة من كلمات الكاهن الأكبر هناك:

- اسمعوا وأطيعوا، هكذا قال الإله الأعظم، الأرض لكم والخير للإله، المتمردون في الجحيم وجحيم الإله يبدأ من هنا، من سجون الإله في الأرض. الإله الأعظم يرعاكم والكاهن الأعظم يبارك طاعتكم ويحفظكم من شر الجن والشياطين. أيها الناس السكوت للأمان والرضا للطعام. يحيا الملك ابن الإله.
العجوز الحكيم يجوب طريقا آخر بين يديه الشاب الذي كان صغيرا بابتسامتهما الصافية ونظرتهما الطيبة.
ينشد العجوز:
دمعة واحدة
تسقط من عين عجوز
في أرض بور
تنبت شابا أخضر
مع قمر مسحور
يسكن عين مدينتنا
فالعميان كثير
دمعة واحدة
تسقط من عين عجوز
تنبت شابا أخضر

بالقنديل يسير

العجوز ينشد والكاهن يزعق في بوقه والناس في نصف المملكة هنا للبوق ينجذبون. العجوز يمر على كل البيوت يلمس جدرانها الخشنة، يسند ظهره على أحدها حينا ويجلس أمام الآخر حينا آخر، وفي النهاية تسقط دمعة من عينه منشدا:

العجوز في الطرقات الحزينة
يبحث عن تابوت
الأشجار ممنوعة في وطني
الموتى عرايا
لكنه يبحث عن تابوت

في هذه اللحظة أيقن فاراس أن العجوز يودع موطنه بكل تفاصيله، الناس، البيوت، الطرقات، حتى الرائحة التي سكنت فيه. يودع نظرات الاستكانة والخوف والضعف في وجوه الناس، كلماته التي تشربتها البيوت ونفر منها سكان نصف المملكة. أيقن فاراس أنها آخر ليلة لمعلمه، ويا لها من وحدة تكون بعده!

****

الأصدقاء الثلاثة يوارون جثمان الحكيم التراب حيث لا أحد غيرهم من نصف المملكة. عاش وحيدا بينهم ومات وحيدا دونهم. شهقة طويلة من فاراس قائلا:

- آه يا معلمي، إلى البراح والراحة، ونحن إلى الضيق والضيقة. من حكمتنا الناقصة إلى الحكمة العظمى التي لا تعلوها حكمة، من ظلمنا البين إلى العدل المطلق الذي لا يفوقه عدل، من السواد والوحل ورائحة العفن إلى الخضرة والزرقة والعطور. آه يا معلمي، مزق الجناح الذي كنت أتكأ به على الريح وطمست العين التي كنت أرى بها الشعاع الوحيد للضوء

وكسرت العصا التي كنت أهش بها غربان الحزن عني، مت يا معلمي ومات كل شيء.
قال راحال باكيا:
- آه يا جدي، راحت الراحة وتمكن التعب. القلب أغلق أبوابه وأوصد شرفاته والشرايين تنزف بلا دماء والعين تفتح ألف شلال للدموع بلا مصب على فراقك يا جدي..
ويبدأ في بكاء شديد.
ناح نيبال:
- آه يا جدي، كنت أتصبر بك عليهم هنا. كنت أرى فيك الأمل، النور والطريق في الظلمات. كلهم هنا أموات وكنت القلب النابض الوحيد واليد الحنونة والابتسامة الطيبة. آه يا جدي، تركوك تموت وحيدا وتدفن وحيدا وسيتركون أي إنسان يمد لهم يد العون يموت وحيدا مثلك فهذه طبيعتهم يا جدي.
- إلى البراح والراحة والبساتين الفواحة يا جدنا.

٤

خلف بوابات الغربة حرب ضروس يستل فيها الفارس سيف المرارة ليحارب مع من آووه وكرموه ودربوه عدوا يريد أن يسلبهم أرضهم وأمنهم. كيروس، الشاب طويل القامة مفتول العضلات، أسمر اللون بعينين جامدتين صحراويتين كأن نهر الدموع لم يجر بهما. مع كل طعنة في صدر جندي من جنود الأعداء تطعن ذاكرته ومضة من ومضات غربته التي قرر أن يتركها ويعود.

مع الطعنة الأولى في صدر أحد جنود الأعداء تطعن ذاكرته ومضته الأولى:

على مشارف المدينة فتى ملقى تجلده الريح بسوط الرمال على جسده العاري إلا من خرقة تستر عورته وبالرغم من نحافة جسده يمتلك القوة ليصارع وحش الموت.
يتوجه إليه مسرعا رجل يمسك في يده عصا يهش بها على غنمه مع ابن له، تقريبا في عمر كيروس.
قال الراعي لابنه:
- ما زال يتنفس، قلبه ينبض رغم عظام صدره البارزة.
- أظنه ملقى هنا من زمن.
- من الليل.
- وكيف نجا من وحوش الصحراء وأفاعيها؟!
- دمه المسمم.
- ماذا؟
- نعم يا بني هذا الفتى دمه مسمم بالكراهية.
- وكيف عرفت يا أبي؟!
- من ملامح وجهه.
- الكراهية لمن؟
- سنعرف قريبا يا بني، أعطني بعض الماء.

يبلل الرجل قطعة قماش صغيرة من إناء صغير مصنوع من الفخار وملفوف بقطعة خيش حتى يحتفظ ببرودته لأطول فترة، يمسح بها وجه الفتى ورأسه وبقية جسده ثم يفتح فمه ويضع به بعض قطرات الماء ويكرر حتى بدأت الشفاة المتشققة الزرقاء تستطعم طعم الماء، وبدأ الجسد المغموس في جهنم الصحراء يشعر ببعض البرد والسلام. يفتح الفتى عينيه على ابتسامة الراعي، ابتسامة صافية كقلب السماء. حكى الفتى بنظرته كل شيء وسمع الراعي بقلبه كل شيء.

****

اشتد قرع الطبول وحمي وطيس المعركة وكيروس شاهرا سيفه،
- حذار يا كيروس إنه خلفك!
صرخ أحد الجنود.
يتفادى كيروس ضربة السيف بخفته المعهودة ويصد الضربة الثانية بسيفه القوي، ثم يضرب عنق الجندي مع ومضة أخرى تضرب ذاكرته:

في بيت صغير مبني من الطوب اللبن مكون من حجرتين بينهما ردهة واسعة تبدأ بباب رئيسي أمامي يفتح على مساحة من الأرض مزروعة بأحواض الأزهار والخضراوات وفي وسطها شجرة جميز، وتنتهي الردهة بباب خلفي مفتوح على مساحة أخرى من الأرض بها حظيرة للأغنام. شرفة رئيسية تطل على حديقة البيت موضوع عليها إناء للماء مصنوع من الفخار وملفوف بقطعة خيش. شرفتان فرعيتان واحدة لكل غرفة. طاولة من الخشب في وسط الردهة موضوع عليها مصباح يضاء بالزيت وسجادة مصنوعة من جلد الأغنام ووبرها، يجلس عليها كيروس وأمامه طبق كبير موضوع به اللبن وقطع الخبز الصغيرة. عن يمينه يجلس الراعي، وعن يساره يجلس الابن، وأمامه تجلس الزوجة كاحتفال صغير يليق بالضيف الجديد.
قال الراعي:

- كل يا بني
رد كيروس:
- وأنت سيدي؟
يبتسم الراعي ابتسامته الطيبة
- أنا لست سيد أحد، لا أحد هنا سيد أحد. كلنا هنا أسياد وكلنا هنا عبيد.
- كيف؟!
- أسياد على أنفسنا نتحكم بها ونطوعها كيف نشاء، وعبيد للحكمة العظمى والمشيئة الكبرى، كل يا بني.
سألت الأم: ما الذي جاء بك إلى هنا يا بني؟
- الظلم
- أي ظلم يا بني؟
- ظلم الوطن يا أمي
قاطع الابن:
- وهل يظلم الوطن أبناءه يا كيروس؟!
- نعم، عندما يعطي لأحدهم ويمنع عن الآخر، عندما يصبح الوطن سوطا في يد وظهرا عاريا لآخر. الوطن الذي يصنف أبناءه عبيدا وسادة، هو وطن ظالم يا أخي.
قال الراعي:
- لكننا نحبه على كل حالاته يا بني
- وأنا لم أرَ من كل حالاته إلا حالة واحدة، الظلم والظلم فقط.
رد الراعي:
- اسمع يا بني، تعلمت من مهنة الرعي ألا شيء يدوم، فأصفر الصحراء مهما طال يخضر، وحرارتها كلما اشتدت يأتي النسيم أكثر برودة. وعموما أنت هنا بين أهلك.
قال كيروس:
- لا أدري كيف أشكركم..
ردت الأم:

- هذا بيتك يا بني
- شكرا يا أمي.
****

كعادة كيروس في حروبه السابقة، يستمتع دائما بطعن أقواهم وأكثرهم شجاعة. سرعته ورشاقته وقوته هم أسلحته الفتاكة لهزيمة أي فارس. ينظر كيروس إلى قائدهم ثم يمتطي الأرض عدوا ووثبا حتى وصل إليه كأنه البرق يضرب قمم الجبال، فيقتله قبل أن يشعر به مع ومضة أخرى.

الأغنام والصحراء وليفان تحابا وتعانقا فاكتملا بالعطاء. أحدهما يعطي ليشبع شهوة الجوع والآخر يعطي ليخفف ألم الوحدة. كيروس يطارد غزالة رآها أثناء رعيه لأغنام الراعي بعد أن أصبح ابنا ثانيا له. يطاردها بكل قوته فتظهر المنحة التي أعطاها له الإله الأعظم، سرعته الشديدة وقدرته الكبيرة على الوثب وقلبه القوي الذي يمكنه من مواصلة الجري لفترات طويلة. هذه المنحة التي مكنته من الهرب من مطاردة البصاصين له للقبض عليه هناك حيث المملكة الظالم حكامها. يستمر كيروس في مطاردة الغزالة معاونا إياه كلب الراعي حتى أمسك بها:
- غزالة سمينة، عشاء الأسرة الطيبة.
يقول كيروس.

كل هذا المشهد تابعه أحد قادة الجيش مع بعض الجنود أثناء عودتهم من أحد المعسكرات إلى المدينة عبر الصحراء. أعجب القائد ببراعة كيروس وسرعته وصبره على الصيد فعرض عليه الالتحاق بالجيش ليكون جنديا من جنوده. وافق كيروس على عرض القائد بالانضمام لمعسكر التدريب بالجيش بعد أن أخذ الإذن من الراعي، فلطالما كره حياة الأغنام، لا طعنا في شرف المهنة، لكن طباعه وهباته من الإله الأعظم ترفض ذلك الآن كما رفض في الماضي أن يصبح شاة تهاب عصا البصاص هناك. تعلم كيروس فنون القتال بسرعة وأتقنها بسبب منحته

الإلهية وتدرج داخل صفوف الجيش من جندي إلى قائد فرقة لما أظهره من براعة وشجاعة في الحروب التي خاضها معهم.

****

سيف كيروس ما زال مسلطا على رقاب الأعداء يجتث منها القاصية والدانية، يطعن صدورهم ومع كل طعنة تزداد حدته. صوته الجهوري كالرعد يزلزل قلوبهم فيقتلهم بالخوف قبل السيف، ومع صرخة النصر تضرب ذاكرته آخر ومضة:

تحت شجرة من أشجار الجميز المنتشرة في قرية الراعي يقف كيروس مع فتاة ريفية بيضاء، يميل شعرها إلى الحمرة، عيناها خضراوتان، قصيرة القامة بعض الشيء، لكنها تمتلك جمال كل شيء. هدوؤها يروض هذا الشاب الجامح ونظرتها الحنونة الطيبة تعوضه الكثير في غربته. أحبته من أول نظرة لما رأت ما في عينيه من حزن وانكسار على الرغم من صلابته وملامح وجهه القاسية. أصبح لها كل شيء، هو يحبها لكن، وبعد لكن دائما تكمن النهايات:

- هل سترحل؟

- نعم

- وتتركني يا كيروس؟!

يبعد كيروس نظرته عنها متفاديا الإجابة فتكرر هي السؤال:

- أتتركني؟

- نعم

- كيف؟! ألا تحبني؟

- ليس لي الحق في الحب فأنا غريب مطرود.

- لست غريبا هنا، أنت الآن تملك كل شيء، البيت والمال والمكانة في الجيش.

- الغريب عن أرضه مهما امتلك.. لا يملك شيئا.

- هناك ستقتل.

- وهنا سأموت.

- أحبك يا كيروس..
- أنا رجل ميت، فهل يعقل أن تحبين رجلا ميتا؟!
- كيروس..
يتركها كيروس قبل أن تكمل حديثها ويرحل بسرعة قبل أن تقع عينه في عينها، وقلبه بركان ينفجر داخله.

كيروس في طريق عودته إلى مملكته بعد أن ودع الراعي و أسرته. يعود من غربته لا يملك شيئا إلا النقود التي ادخرها من عمله بالجيش بعد أن ترك جزءا منها لأسرة الراعي ردا لجميلهم معه وبعض الطعام والشراب الذي أعطته إياه زوجة الراعي. مترجلا وحيدا خائفا يحمل بين جوانحه شوقا كبيرا لوطنه الذي طرده وأصدقائه الثلاثة، العمر الذي تركه هناك، يحمل أملا أكبر في أنه قد تبدلت الأحوال في المملكة التي هرب منها.

٥

مملكة يسيطر الكهنة فيها على كل شيء، يتحكمون في مصير الملوك. مباركتهم منصب، غضبهم موت، برقهم شموس ورعدهم حياة. معابدهم مملوءة بالقرابين من الذهب والفضة والمحظيات.
العامة يخافون السحر والشعوذة ويؤمنون بالخرافات والأساطير. يصدقون كل ما تقوله الكهنة، فالكاهن رسول الإله في الأرض، يتحدث فيصدق ويأمر فيطاع.

المملكة نصفان..
نصف المملكة الحي، حياة للملك والأمراء والجنود وأصحاب السلطة والنفوذ والتجار. يستدفئ بالشمس عند شروقها وينعم بنسيم البحر وعطر البساتين. يملك كل نفوذ السلطة والمال. قصور مبنية من أحجار الجرانيت والرخام متعددة الطوابق والغرف، مزركشة بألوان قوس قزح. تطل شرفاتها على البساتين وتفصل بينهما الطرق الواسعة الممهدة. مركبات تجرها الخيول وخيول يركبها الجنود تجوب الطرقات، تدور حول القصور يوفرون لسكانها الحماية من حقد المتسللين من نصف المملكة الميت.

نصف المملكة الميت.. يسكنه العبيد وهذا الاسم هو ما يطلقه عليهم سكان نصف المملكة الحي، أموات يتنفسون فضلات الفئران وبول الكلاب حول أكوام القمامة. بيوت صغيرة متهالكة من طابق واحد وغرفة أو غرفتين على الأكثر، مبنية من الطين مملوءة بالعفن والريح النتنة. البصاصون يملئون ممراته الضيقة، يسترقون السمع ويمعنون النظر، هل من متمرد حاقد كاره يطوعونه بسياطهم، هل من جميلة يمسحون عنها غبار الفقر ورائحة النجاسة تنضم لمحظيات الأمراء هناك وربما يختارها الملك فينعم عليهم بأكياس الذهب والفضة.

أضيئت المصابيح على أعمدة الطرقات وأسوار القصور في نصف المملكة الحي بزيت الزيتون فأصبحت كالنجوم الساطعة في رحم الأرض.
يهجم الظلام على نصف المملكة الميت كوحش أسطوري يبتلع البيوت الصغيرة، فلا يظهر لها باب أو تفتح لها نافذة، لا شيء إلا أشعة صغيرة هاربة من جدران البيوت المهترئة. من كل حين لآخر تأتي بعض الأخبار من نصف المملكة الحي لنصفها الميت عن طريق بعض المتسللين الناجين من أيدي الجنود.

حجرة صغيرة في بيت صغير في نهاية ممر فرعي من الممرات الضيقة، نعم هو بيت العجوز الحكيم لم يتركه فاراس وانما أصبح البراح الذي يستطيع الأصدقاء أن يسبحوا فيه. هذا البيت الذي نسي أمره البصاصون وغفل عنه الواشون الطامعون في قطعة لحم وبعض الأرغفة وربما قطعة ذهبية لو كانت الوشاية ذات أهمية.
ضوء شاحب ينبت من فتيل صغير يجتمع حوله ثلاثة من الشباب يتحدثون في أمور المملكة، الفقر الشديد والمعاناة والذل في نصفهم الميت، والغنى والرفاهية التي يتمتع بها نصف المملكة الحي:

قال نيبال:
- الفقر توحش والتهم لحوم الناس، تراهم هياكل عظمية كالموجودة في وادي الموت هناك.
أضاف راحال:
- بل أكل جدران البيوت، تراها مهترئة ضعيفة لا تقوى على الصمود في وجه الريح والبرد، فتنكفئ على وجوهها الواحد تلو الآخر.
وقال فاراس:
- الفقر توحش حين اقتات الناس رغيف الخوف.
سأله راحال:
- هل تعني أن خوف الناس منع عنهم حق الحياة؟
- نعم.

سأل نيبال:
- كيف؟
- الخوف لجام من نار يمنع عنك الطعام والشراب والهواء، يحرق نبت الحرف في أرض الحلق ثم تنتشر النار لتحرق زرع أفكارك ووعيك وتسلب راحة الطمأنينة واليقين من قلبك. الخوف شيطان يستعبدك بالذل والمهانة والسكوت عن حقوقك.
- الفقراء ليس لهم حقوق، هم عبيد الفتات كما يسموننا هناك.
- لنا حقوق مثلهم، فكلنا أبناء المملكة.
تعجب راحال:
- وكيف نحصل عليها؟
- نطالب بها.
استنكر نيبال:
- من سيسمعكم، ومن سيطلب معكم؟ هؤلاء الحمقى المضاجعون لبؤسهم سيفتحون أفواههم؟!
قال راحال:
- حتى إن فتحوها، يفتحوها فقط للتثاؤب وصب اللعنات والشتائم على بعضهم.
رد فاراس:
- يريدون من يأخذ بأيديهم.
صوت يأتي من خارج باب الغرفة:
- هؤلاء الحمقى جبلوا على الخوف.
ينتفض فاراس قائلا:
- إنه كيروس، نفس النبرة الغاضبة الساخطة على كل شيء، إنه كيروس لم تتغير نبرته بتغير الزمن!
يظهر وجه كيروس في ضوء الفتيل الخافت فينتفض الأصدقاء الثلاثة لملاقاته. تتوالى الأحضان وشهقات الحنين والشوق.
- اجلس هنا!
- لا هنا!

وقال فاراس:
- آه يا صديقي، أيها الغائب الذي أخذ الكثير معه وانكسر نصف ظهري برحيله.
رد كيروس:
- أتعلم يا فاراس كأن شيطان الكاهن الذي أخذ روحي عند فراقكم ردها إليّ الآن.
قال راحال:
- عند رحيلك يا صديقي، أخذت معك ضلع المربع ففتحت علينا بابا للخوف والتردد، الأن أغلق ثانية.
وهتف نيبال:
- أيها المتمرد الجامح الطامح كحصان الليل الأسود لا يهاب شيئا، أهلا بعودتك!
رد كيروس:
- أهلا بكم جميعا يا أصدقائي.
سأله فاراس:
- كيف عرفت أننا هنا؟
- وأين ستكونون؟ فلطالما اجتمعنا هنا وتحدثنا هنا وتقاسمنا المعاناة والفقر والحكمة مع جدنا هنا. أين جدي؟
يصمت الجميع فيكرر كيروس عليهم السؤال، فيجيبه فاراس:
- مات الجد يا صديقي.
يعتري الحزن وجه كيروس ويضرب الأسى قلبه لكن تأبى الدموع أن تنزل من عينيه فالدموع في قاموسه ضعف وهو ليس بالضعيف. يسرع نيبال بالحديث إلى كيروس حتى يخرجه من هذه الحالة:
- أخبرنا يا صديقي عن رحلتك.
- تقصد منفاي يا نيبال، لا وقت الآن للحكايات يا أصدقائي فالوضع هنا صار أسوأ عما تركته، دعونا نكمل الحديث الذي قاطعتكم فيه لعلي أعرف السبب، أظننا توقفنا عند...
يقاطعه فاراس قائلا:

- ما زلت كما أنت لم تغيرك السنون، متسرعا لا تنتظر الإجابة ولا تعطي نفسك براح الوقت للتفكير.
- وأنت كما أنت يا صديقي، اللجام الذي يكبح جموحي وتهوري، دعونا نكمل يا أصدقائي. ما رأيك يا راحال، أليسوا جبلوا على الخوف؟
رد راحال:
- لا أظن يا كيروس، عبودية الفقر والخوف على الفتات جعلتهم كذلك.
- ومن فعل بهم ذلك؟
- الآلهة
هتف فاراس:
- لا، الآلهة عادلة!
فكر نيبال:
جبروت الأغنياء.
رد فاراس:
- لا.
تعجب كيروس:
- إذن ما هو يا فاراس؟!
- جهل المعرفة بالحقوق يا صديقي.
سأل راحال:
- وما الحل؟
أجاب كيروس:
- المقاومة وأخذ الحقوق بالقوة!
قاطعه فاراس:
- الوعي أولا يا كيروس. المقاومة بدون وعي كإلقاء نفسك من فوق جبل على أمل أن تحملك الريح أو يهبك الإله الأعظم جناحين تطير بهما.
تساءل راحال:
- ماذا تعني بالوعي؟
- الوعي كالصاعقة التي تنهش قلب الظلام عندما يضرب البرق صدر السماء مخرجا النور من رحم النار، الوعي هو المعرفة.

- أي معرفة؟
- معرفة حقوقك والمطالبة بها .
استنكر كيروس:
- الكثيرون يعرفون، لكن يمنعهم جبنهم!
- معرفة ناقصة، ينقصها الإيمان واليقين.
- أي إيمان وأي يقين؟!
- إيمانك بما عرفت ويقينك أن الذي آمنت به هو الحق.
- أنا أعرف أن من حقي المقاومة ومؤمن بهذه المعرفة على يقين أني على الحق.
- لكنهم لا يعرفون وسيخذلونك.
قال نيبال:
- وكيف سيعرفون وهم مستسلمون للفقر، عبيد للفتات؟
رد فاراس:
- الفقر يا أصدقائي حربة مسمومة يرميها الملك وأعوانه في صدورنا ليقتل فينا حق المعرفة، ندخر كل طاقتنا للبحث عن الفتات الملقى إلينا منهم من أول إشراقة شمس حارقة لبداية ليل قارس البرودة، ومن لم يجد الفتات يحارب جيش الفئران في معركة القمامة، تخيلوا عند تسللي إلى هنا تعثرت بقتيل في معركة القمامة، تحاصره الفئران وتنهش في عظمه. حاولت إبعادهم بلا جدوى. صباحا سيلقونه في وادي الموت ككل الموتى هنا، عرايا قبل الموت وبعده.
قال كيروس:
- أراح واستراح.
عقّب نيبال:
- الغريب أن الواحد ينهشه الجوع طوال النهار ويعود ليلا متكأ على عظام ساقيه التي تكاد أن تنكسر من دقتها ليفترس امرأته حتى لو الحصير مزق لحمه ولحمها.
رد كيروس:
- يخرج غضبه فيها، انتقام.

قال فاراس:
- ممن؟
-: من أمه.
راحال يضحك بشدة:
- ولماذا؟
-: لأنها سبب وجوده في هذا العالم الظالم الفقير.
يضحك الجميع كأنهم لم يضحكوا من قبل لدرجة نسيانهم أمر البصاصين.
قال نيبال:
-هل سمعتم آخر الأنباء؟
رد راحال:
- من المؤكد أنها ككل أخبارك التافهة، حفل تنصيب وزير، زواج أميرة من الأميرات، القبض على متسلل.
- لا، ليس هذه المرة.
قال كيروس:
- هات ما عندك.
- الملك مريض.
تعجب راحال:
- ماذا؟! وهل تمرض الملوك؟!!
قال فاراس:
- نعم، تمرض وتموت
- أجننت يا فاراس! الملوك لا تموت، الملوك أبناء الآلهة!
كان الكهنة في المملكة يخبرون الناس أن الملوك أبناء الإله الأعظم وأبناء الإله لا تموت ومن جهل الناس وفقرهم وحاجتهم يصدقونهم.
سأل كيروس:
- ومن أخبرك بذلك يا نيبال؟

-: أحد المتسللين للنصف الآخر، سمعه من أحد الحراس في الحديقة الملكية يحدث به جنديا آخر.
-: إذا كان الكلام حقيقيا فالفرصة جيدة للمقاومة، سينشغل القصر بمرض الملك والجنود بما يدور داخل القصر والبصاصون بما يدور في النصف الآخر من المملكة.
قال فاراس:
- نتأكد أولا يا رفاقي.
سأل راحال:
- كيف؟ والجنود منتشرون حول القصر كذرات الغبار.
قال نيبال:
- لا تقلقوا سأتصرف.
تساءل كيروس:
- ولو تأكدنا.
رد فاراس:
- وقتها يبدأ العمل يا رفاقي.
قال نيبال:
- حان وقت الرحيل يا أصدقائي، فالمعدة بدأت بنهش نفسها من الجوع. من سيأتي معي؟
رد راحال:
- أنا.
قاطع كيروس:
- انتظرا يا صديقاي.
يخرج كيروس كيس الدراهم الذي معه ويبدأ بتقسيمها على الأصدقاء بالتساوي بما فيهم هو.
تعجب فاراس:
ماذا تفعل يا صديقي؟!
رد كيروس:
- هذا نصيبكم.

استنكر راحال:
- إنه ثمن غربتك!
- وهو أيضا صبركم هنا على ما هو أقسى وأصعب ومحاولة تغييره، إن لم تأخذوه سأرحل لكن هذه المرة بلا عودة.
قال فاراس:
- يا صديقي..
يقاطعه كيروس مقسما:
- وصداقتنا إن لم تأخذوه سأرحل.
بعد هذا القسم من كيروس يمد الأصدقاء أيديهم ليأخذوا الدراهم لكن لغرض مهم سوف يأتي ميعاده لاحقا. يرحل نيبال ومعه راحال ويبقى كيروس وفاراس يتبادلان أطراف الحديث كالأيام الخوالي.
- أه يا صديقي كم عانيت الوحدة بعدك، كل يوم يرحل نيبال وراحال ويتركاني لأظافر الوحدة تنهش جسدي وغربان أفكارها تنقر في رأسي.
- لم يكن بيدي يا صديقي، هم من طردوني بظلمهم.
- وهناك في غربتك، ما الذي حدث هناك؟
- يا ليت هنا مثل هناك، هناك العدل الذي نتمناه.
- هل ستفارقني ثانية يا صديقي؟
- لا فراق بعد اليوم، حتى بعد الموت سنكون سويا.
يسند فاراس رأسه على الحائط وكيروس يضع رأسه على كومة القش الموجودة تحت قطعة الخيش. نفس قطعة الخيش التي كان ينام عليها الجد. ينامان كأنهما لم يناما من زمن طويل.

٦

القصر الملكي على مساحة واسعة من الأرض تحيط به البساتين من كل جانب، مبني من أحجار الجرانيت والبازلت ومكون من طابقين بسلمين داخليين. يوجد في الطابق الأول قاعة كرسي العرش، يتوسطها كرسي الملك مصنوع من خشب السنديان ومطلى بماء الذهب ومرصع بالجواهر موضوع فوق سجادة حمراء بمساحة القاعة مصنوعة من أجود الوبر والأنسجة، حوائط الغرفة مرسوم عليها حروب ومعارك قادها الملك وانتصر فيها. غرفة استراحة الملك، غرفة صغيرة بعض الشيء بها سرير لقيلولة الملك، وكرسيان بينهما منضدة صغيرة عليها زهرية موضوع بها مجموعة من زهور البستان الرئيسي للقصر وأرضية الغرفة مغطاة بسجادة ناعمة طويلة الوبر، الحوائط معلق عليها صور للبحر والشاطئ والطبيعة الساحرة التي يطل عليها نصف المملكة الحي. حجرة الوزير وهي تشبه حجرة الملك لكن في مستوى أقل بعض الشيء. قاعة الاجتماعات تتوسطها طاولة كبيرة تحيط بها مجموعة من الكراسي في أحد جوانبها تمثال للإله الأعظم وفي الجانب الآخر تمثال للملك المعظم. قاعة الطعام تتوسطها طاولة كبيرة تحيط بها مجموعة من الكراسي موضوع عليها أطباق من الذهب والفضة وأكواب من الزجاج. الردهة الكبيرة وهي المساحة التي تطل عليها كل أبواب هذه الغرف بالإضافة إلى باب آخر كبير يؤدي إلى المعبد الكبير الملاصق للقصر. في الطابق الثاني الغرف الخاصة بالملك، غرفة نوم الملك الرئيسية، غرفة المحظيات، غرفة الخدم المقيمين بالقصر. يحيط بالقصر سور مرتفع له بوابة رئيسية بجانبها غرفة حرس البوابة وبوابتان فرعيتان عليهما برجان للمراقبة. يحيط بالقصر الحراس من كل جانب يغلقون كل منافذ الدخول لدرجة أن الهواء يدخله بصعوبة، الردهة الكبيرة بالقصر يصطف بها الأمراء والأميرات والمحظيات، يتوسطهم وزير المملكة في مشهد مهيب، إما لاستقبال أحد.

الـوزير يتحـرك بعصـبية شـديدة وارتبـاك يظهـر في حركـة يديـه غير المنتظمة، نظراته موزعة ما بين باب غرفة الملك والباب المؤدي إلى المعبد الكبير. يخرج أحد الكهان من حجرة الملك بعباءته السوداء ورأسه الأقرع الموشومة بحروف لغة الإله الأعظم. يقبل الوزير على الكاهن بسرعة:

- ما أخبار الملك؟

الكاهن ينظر إلى الوزير نظرة سريعة غاضبة ويجيبه إجابة مقتضبة:

- لا أخبار عندي

- عند من إذن؟

- عند الكاهن الأكبر

ويتركه مسرعا ليدخل من الباب المؤدي إلى المعبد الكبير. الوزير مرتبك حائر محدث نفسه:

- ماذا يحدث بالداخل؟ هل تمكن المرض منه؟ هل مات بالفعل؟ لكن كيف يموت؟! لكنه مرض بالفعل، شاهدت ذلك في وهنه الشديد واصفرار وجهه وثقل لسانه.

ينتبه الوزير على صوت الطرق ينبه من في القاعة بدخول الكاهن الأكبر. يدخل رجل في عباءته الحمراء ورأسه الأصلع الموشوم بنفس حروف اللغة الغريبة، عيناه واسعتان ونظراته حادة ومخيفة، لا يعرف الابتسام، ينحني كل من في القاعة أمامه. يبدأ في صلاته بتمتمة لكلمات وطلاسم غريبة. يعلو صوته شيئا فشيئا حتى صار كالرعد يضرب أذن السماء. ارتعدت أطراف كل من في القاعة حتى تمنوا لو سكت.

- آمين

يرد كل من في القاعة:

- أمين

- الملك المعظم مات، أخذ الإله الأعظم روحه ليغسلها بماء البحيرة العظيمة في قصر السماء وأنا سآخذ جسده لأطهره في المعبد الأكبر ثم يستريح في مقبرته الملكية.

صوت الطرق ثانية. يفتح باب غرفة الملك. جسد الملك الميت ملفوف بعباءة تشبه عباءة الكاهن الأكبر ومحمول على لوح خشبي مزركش بنفس اللغة الغريبة، يحمله أربعة من الكهنة بزيهم الأسود متوجهين إلى الباب المؤدي للمعبد الكبير، حينها يتمتم الكاهن الأكبر بالكلمات الغريبة ويعلو صوته شيئا فشيئا. الجميع راكعون وعيونهم في الأرض، لا يجرؤ أحد منهم على النظر لجسد الملك المعظم، يغلق باب المعبد ولن يفتح إلا حين ينتهي الكاهن الأكبر من تطهير الجسد ويأذن بدفن الملك المعظم في مقبرته الملكية.

٧

نيبال في أحد الممرات الضيقة ينتظر أحدا ما، يتلفت يمينا ويسارا ربما أحد البصاصين يراقب، فقد خدعهم بصعوبة للوصول إلى هنا، وأخبرها أن تفعل ذلك أيضا. (فاتنة) هي فعلا فاتنة شعرها الذهبي يجذب النظر رغما عنه، عيناها الزرقاوات كماء البحر، صدرها يحمل تفاحتين ناضجتين لثمهما شبع من الجوع والعطش، خصرها النحيف وساقاها الملفوفتان، كأنها ولدت في السماء وسقطت مع نجمة لكن حظها السيئ أنها سقطت هنا في هذا المستنقع القذر.
نيبال وجدها تتسول بثديها في احد الممرات الضيقة في نصف المملكة الميت فأبهره جمالها وعلم بدهائه الشديد أنها من الممكن أن تصبح طوق النجاة من المستنقع العفن الذي يعيش فيه والسبيل إلى هناك، فعرض عليها أن تتوقف عن ممارسة هذا العمل وتمكث في بيتها على أن يوفر لها الطعام والشراب، وهي وافقت على الفور فلا حاجة لها الآن للتسول حتى لو طمع بها فهو فم واحد.
نيبال لا يحبها ولا هي أيضا. كل الذي يجمعهما كرههما الشديد للفقر والعبودية والذل في نصف مملكتهما الميت وحبهما الأشد للمال والسلطة الموجود في نصف المملكة الحي، والوصول إلى هناك يبدأ من المعبد الصغير الموجود على أطراف نصف مملكتهم. ها هي قادمة، يا إلهي، رغم ثوبها الرث والوشاح القديم الذي تغطي به شعرها ونصف وجهها لكنها حورية تاهت في مستنقعنا العفن.

- ما الذي أخرك؟
- البصاصون في كل مكان.
- وهل رآك أحد؟
- لا.
- إذن هيا بنا.
- إلى أين؟

- المعبد الصغير
ردت فاتنة بدهشة:
- المعبد الصغير! ولماذا؟
- سأخبرك في الطريق.

عندما سمع نيبال بمرض الملك الشديد بدأ رحلة الأمل للوصول إلى هناك، القصر. المرض الشديد دوما يؤدي للموت، وموت ملك يأتي بملك جديد، ومن الطبيعي أن الملك الجديد يحتاج رجالا جدد يصبحون أعوانه وأسلحته للتخلص من رجال الملك الراحل. من يذهب يذهب بمن معه، ومن يأتي يأتي بمن معه. هذه هي سنة السلطة والحكم. نيبال يريد التأكد من الخبر أولا. والخبر اليقين في المعبد، والمعبد يحتاج لقربان والقربان بين يديه الآن (فاتنة) لا يشك أبدا في ذكائها وجمالها.
فاتنة تعلم أن نيبال يستغلها لكنه لا يعلم أنها تستغله أيضا فهي لا تعطي إلا ما تريد وتأخذ في المقابل كل ما تريد.

المعبد الصغير على مشارف نصف المملكة الميت، صورة مصغرة من المعبد الكبير، مبني من أحجار الجرانيت والبازلت من طابق واحد مقسم إلى مجموعة من الغرف، غرفة الكاهن الأصغر الخاصة وهي محرمة لا يدخلها الا هو، يقوم فيها بأعمال السحر والتكهن، غرفة التطهر، غرفة التعذيب، غرفة المحظيات والخدم بينهما ردهة واسعة يتوسطها تمثال للإله الأعظم تحيطه الشموع من كل جانب وأمامه توضع القرابين التي يقدمها نصف المملكة الميت. الكاهن المقيم به هو كاهن من الدرجة الثالثة. الدرجة الأولى للكاهن الأكبر ولا غيره، والدرجة الثانية للكهنة المساعدين للكاهن الأكبر في المعبد الكبير. الزى الخاص بكهنة الدرجة الثانية والثالثة عبارة عن عباءة سوداء مطرزة بلغة العبادة باللون الذهبي. للكاهن الأصغر مقدرة على أعمال السحر والتكهن. سكان نصف المملكة الميت يقدرونه لمكانته الدينية، فمكانة الدين عند الفقراء كبيرة مع أن معظمهم غير متدين، ويخافونه خوفا شديدا لأعمال سحره

وتكهنه وليقينهم أنه محمي بالجن والشياطين. السحابة السوداء التي يصنعها الكاهن الأصغر بالسحر وتحيط بالمعبد الصغير تزيد المكان هيبة ورهبة وتبث في قلوب عبيد الفتات الخوف، فلا أحد منهم يجرؤ على الاقتراب منه، فالشائع بينهم أنها تقتل اللصوص الطامعين في القرابين أو المتسللين لمعرفة أخبار نصف المملكة الحي هناك. الكاهن الأصغر يعيش بمفرده بعد رفضه للخدم والمحظيات. وهب نفسه للعبادة ووقته لإتقان أعمال السحر والتكهن.

نيبال يطرق باب المعبد الصغير، يفتح له الكاهن الأصغر.

- ماذا تريد؟
- جئت للعبادة سيدي.
رد الكاهن بتعجب شديد:
- للعبادة! ومنذ متى يأتي الفقراء هنا للعبادة، يأتي القليل منهم للتكهن عن مستقبلهم البائس أو فك سحرهم الشيطاني أو أخذ البركة منى حتى قرابينهم التي يقدمونها لذلك لا تسمن ولا تغني من جوع. قربان العبادة أثمن وأغلى، هل تعلم ذلك؟
- وهل يعطينى الإله الأعظم ما أريد؟ وهل يجيبني كاهنه على أسئلتي؟
- على قدر قربانك تأخذ.
- ها هو قرباني، تقدمي يا فاتنة
تتقدم فاتنه بدلالها المثير ثم تكشف عن وجهها المشرق متحدثة إلى الكاهن الأصغر:
- سيدي الكاهن
ينبهر الكاهن بجمال فاتنة الرائع، محاولا إخفاء هذا الانبهار بالصمت، ثم يحدث نفسه:
- يا إلهي!!! ما هذا الجمال لبشر، من أي سماء نزلت، من أي بحر خرجت، في أي جنة نبتت، هل حقا جاءت من هذا المستنقع المملوء بالقبح والقذارة!

سألت فاتنة:
- هل يقبلني الإله يا سيدي؟
- هل يقبلك؟ سنرى.
قاطع نيبال:
- مهلا يا سيدي، وأسئلتي؟
- اسأل ما شئت.
- سؤال واحد يا سيدي إن أجبتني عليه قدمت قرباني للإله الأعظم.
- سأجيبك
- هل الملك المعظم مريض؟
- هل جننت؟ وكيف جاءتك الجرأة على سؤال كهذا؟!
- مهلا سيدي الكاهن فليس هنا إلا أنا وأنت وقربانك
- تقصد قربان الإله.
- أيا كان فلن يعلم أحد.
- الإله الأعظم سيعلم وسيغضب علينا جميعا.
- استغفره سيدي وقدم له القربان الجميل تكفيرا عن خطيئتنا.
- وما الذي سيفيدك من معرفة ذلك؟ أنت من النصف المغضوب عليه، نصف المملكة المستعبد والمستبعد من خير الإله والملك.
- المعرفة فقط سيدي، المعرفة.
- سأجيبك لكن إن أخبرت أحدا غيرك ستصيبك لعنة الإله ولن ينفع معها استغفار أو توبة أو قربان.
- لن أخبر أحدا سيدي.
- نعم مرض الملك المعظم ومات بمرضه، وليغفر لى إلهي الأعظم.
- مات الملك بمرضه!
- نعم مات الملك المعظم وإياك أن تخبر أحدا من العبيد بذلك وإلا سيصب الإله الأعظم غضبه علينا ولن يغفر لي أبدا.
- قدم له القربان وسيغفر لك، فأنت خادمه الذي قضى عمره في عبادته وتقديم القرابين إليه، هيا يا فاتنة ادخلي مع سيدنا الكاهن وليقبلك الإله في ملكوته وليغفر لنا جميعا.

يمسك بيدها الكاهن ويدخلها المعبد الصغير ويغلق بابه في وجه نيبال الذي أدار وجهه عنه بابتسامة انتصاره الأول في معركة
الوصول إلى هناك، القصر، نصف المملكة الحي محدثا نفسه:
- إما مع أصدقائي بالثورة والمقاومة وإما مع فاتنة بالمكر والدهاء والخديعة، الطريقة لا تعنيني، كل الذي يعنيني هو الوصول.

٨

المعبد الكبير، القاعة الكبيرة يتوسطها تمثال كبير للإله الأعظم تحيطه الشموع والقرابين من كل جانب وسحابة سحرية سوداء يصنعها الكاهن الأكبر حوله، وأمامه كرسي الكاهن الأكبر من الخشب الثمين المرصع بالكثير من الجواهر والمطلي بماء الذهب. في القاعة أربعة أبواب، باب غرفة التطهر من الذنوب والخطايا عن طريق الاغتسال بماء السماء، باب غرفة العذاب للمغضوب عليهم من الكاهن الأكبر، باب غرفة المحظيات وبها الكثير من النساء الجميلات اللاتي أهدين للكاهن الأكبر أو كن قرابينا للإله الأعظم، والباب الأهم، باب غرفة الكاهن التي يقوم بكل أعماله داخلها من سحر وتكهن.

الوزير يجثو أمام الكاهن الأكبر في وسط القاعة طالبا منه العون والبركة والكاهن واضعا يده على رأسه متمتما بالصلاة، وبعد فترة يقول الكاهن الأكبر:

- قم أيها الوزير، لك من العون والبركة ما يطمئن روحك الخائفة، لك من الشمس ما يدفئ برد دمائك، من الريح ما يسقط عنك أوراق سنينك الذابلة ومن الرعد ما ترهب به أعداءك. الإله الأعظم راض عنك.
- وسيدي الكاهن، هل راض عنى أيضا؟
- الرضا رضا الإله الأعظم أيها الوزير.
- وأنت رسول الإله في الأرض، النور الواصل بين الطين وبين البراح، بين الماء وبين النار، أنت المسار والقنديل والطريق والدليل. على بابك جيوش الطبيعة تنتظر الأمر وفي حضرتك ملوك الجان خدام
- وأنت وزير ابن الإله، كاتم سره ومنفذ أمره، سوطه الذي يجلد به ظهور الخارجين ويده التي ينعم بها على المقربين
- الرضا سيدي الكاهن، ما أريد سوى الرضا.
- الرضا يعنى بقاءك يا وزير، أليس كذلك؟

- نعم سيدي الكاهن. ابن الملك سيتسلم السلطة والقائد دون هو كاتم سره ويده اليمنى، إذن لا مكان لي الآن.
رد الكاهن بغضب شديد:
- أنا فقط من يقول من له مكان ومن ليس له، أنا فقط أيها الوزير!
- ولهذا أتيت أطلب الرضا سيدي.
- الثمن يا وزير، لكل رضا ثمن.
- هل يسمح سيدي الكاهن الأكبر بقبول هذه الهدية المتواضعة.
يشير الوزير فتدخل مجموعة من الجنود تحمل عددا من الصناديق المحملة بالذهب والفضة ومعهم بعض المحظيات الجميلات، يبتسم الكاهن الأكبر واضعا يده على رأس وزير الدولة مانحا إياه بركة قبول الهدية.
- قبلنا قربانك وهديتك يا وزير.
- شرف لي، هل يسمح لي سيدي بالانصراف؟
يأذن له الكاهن الأكبر بالانصراف فيخرج الوزير مطمئنا فهو إلى الآن ما زال محافظا على مكانه في بلاط القصر.

٩

الليل يجلد البيوت بظلامه فتسمع لها أنينا، الضوء الخافت الهارب من الجدران المهترئة شاحب اللون يصارع الظلام للبقاء. منحنى صغير في ممر ضيق داخل نصف المملكة الميت. امرأة تظهر نصف ثديها لرغيف خبز وشاب يسند يده على الحائط، ضاربا سهم نظرته في ثديها.

تقول المرأة:
- الرغيف أولا.
يرد الشاب:
- وإن أعطيتك الرغيف، ما يتبقى لى؟
- النشوة.
- وهل تسمن أو تغنى من جوع؟
- أنت حر
الشاب يقتله الصراع بين جوع بطنه وجوع شهوته، إن أعطاها الرغيف شبعت شهوته وقتله جوع بطنه وإن لم يعطها شبع بطنه وأقلقت شهوته نومه، المرأة ينهش الجوع معدتها حتى كاد أن يتوقف قلبها، لكن ما زال ثديها منتصبا لصيد الطعام، تكشف عن ثديها أكثر، يتدلى لسان الشاب كثعبان متأهب للانقضاض على فريسته، الصراع بين الجوع والشهوة قد ينتهي بالموت.
يقول الشاب:
- أعطيك نصف الرغيف.
- إذن لا شيء أكثر من اللثم، نصف رغيفك يطفئ نصف شهوتك.
- موافق..
ثم ينقض على صدر المرأة فتدفعه قائلة:
- نصف الرغيف أولا

يعطيها الشاب نصف الرغيف فتعطيه المرأة نصف ثديها، ينقض الشاب على الثدي والمرأة على نصف رغيف الخبز، فالكل هنا في نصف المملكة الميت يغرق في الأنصاف، نصف الشبع، نصف الشهوة، نصف الطمأنينة حتى نصف الكفاف.
على بعد خطوات يقف أحد البصاصين يسترق السمع إلى حديث الجوع ويراقب خطوات فاراس، فالبصاصون كالكلاب المدربة يستطيعون شم رائحة الثائرين عن بعد وكل ملمح من ملامح هذا الشاب تدل على ذلك، رأسه المرفوع دوما، عينه الواسعة اللامعة بالأمل، كلماته القليلة التي تجذب الانتباه وتترك أثرها في القلوب.
يلاحظ فاراس البصاص فيغير الممر إلى ممر آخر. يحاول البصاص اللحاق به لولا المرأة نفسها توقفه طمعا في قطعة نقود ثمنا للمتعة. ينهرها البصاص خوفا من عقاب رئيسه فتحاول ثانية فيدفعها البصاص بعيدا عنه محاولا اللحاق بفاراس الذي غاب في ممرات نصف المملكة الميت حتى وصل إلى بيته الذي ينتظر فيه أصدقاؤه.
قال راحال: ما الذي أخرك يا فاراس؟
- أحد البصاصين ولولا امرأة تقتات بثديها ما جئت.
سأل كيروس:
- وهل كانت جميلة؟
- من؟
- المرأة.
- نعم، لكنك تعلم يا كيروس أن امرأتي تكفيني.
تعجب راحال:
- ومن هي؟
- المعرفة، امرأتي التي أشكلها كيف أشاء، تارة بيضاء وتارة سمراء وألون عينيها بأزرق البحر مرة وأخرى بأخضر الزرع. أفرد شعرها ليلا هادئا يرتاح فيه المتعبون أو قمحا ذهبيا يشبع الجوعى. أعريها بلا خجل أمام أعين المستضعفين المشتهين وأغطيها بنقاب الستر من أعين البصاصين والأمراء والكهنة.

رد كيروس:
- كفى، أي معرفة تشبه المرأة الجميلة؟ تعطيك كل شيء في لحظة وتسلب منك كل شيء في أخرى.
- المعرفة تفعل ذلك أيضا.
قال راحال مقاطعا حديثهما:
- نفس السجال بين كيروس وفاراس، بين البدن والعقل، المحسوس والملموس، الخيال والواقع لدرجة نسياننا نيبال، أين نيبال؟
قال كيروس:
- فعلا، تأخر اليوم عن موعدنا.
يدخل نيبال مبتسما قبل أن يكمل كيروس كلامه:
- هل افتقدتموني؟
قال فاراس:
- نعم، فأنت تعلم أن المربع لا يكتمل إلا بك
وقال راحال:
- ما أخرك يا نيبال؟
- الخبر
- أي خبر؟
- الخبر الذي أردتم أن أتأكد من صحته.
قال كيروس:
- تكلم يا نيبال فما عاد الوعاء يتحمل أكثر!
- على رسلك يا كيروس، ليس كل شيء بالقوة، خبر مرض الملك.
سأل فاراس:
- هل تأكدت من الخبر؟ هل الملك مريض حقا؟
- بل أكثر من ذلك، مات الملك
هتف الجميع:
- ماذا؟ مات الملك؟!
- نعم، مات.

بعد أن زالت علامات التعجب والدهشة، تهللت وجوههم. وكأن غيمة الحزن أزاحتها ريح السعادة وأبدلتها بابا جديدا للأمل.
قال راحال: حمدا للإله الأعظم! مات الملك الظالم. عسى أن يتبدل الحال ويأتينا الإله الأعظم بملك عادل.
قال كيروس:
- أرض الشر هناك لا يخرج منها إلا النبت الشيطاني.
- ربما
قال نيبال:
- كيف؟ ووريث العرش تربى بين يدي الكاهن الأكبر وتعلم في مدرسة أبيه.
قال فاراس:
- عبيد السلطة لا ينجبون إلا عبيدا للسلطة.
كيروس: أخبرني يا نيبال، من أكد لك الخبر؟
- تأكدت بطريقتي الخاصة.
لا يخبر نيبال في معظم الأحيان أصدقاءه عن كل ما يفعل فهو يعلم جيدا أن الكثير من أفعاله لن تعجبهم.
قال كيروس:
- الآن يا أصدقائي حان وقت المقاومة، سأتحرك لإعداد مجموعات صغيرة من الشباب. ما زال بعضهم لم يقتته الفقر ولم يهلكه الجوع والقهر، سأعلمهم استخدام السلاح والمصارعة، سأعلمهم كيف يمتطون الريح ويضربون رءوس الشياطين فتتساقط معهم رءوس الكهنة، سأجعلهم أسودا لا تخشى جنود المملكة.
قال فاراس:
- نعلمهم حقوقهم قبل ذلك، ونجعلهم يؤمنون بها، إن فعلوا ذلك لن يرهبهم شيء، وأنا سأتكفل بهذا الدور.
قال نيبال:
- سيدربهم كيروس ويعلمهم فاراس.
ويضحك بصوت مرتفع:

- قلة من سكان المستنقع العفن بلا قوة ولا عقل يهزمون جنود الملك ويتغلبون على سحر الكهنة وشياطينهم.
رد فاراس:
- يفعلون يا نيبال إن امتلكوا القوة.
- أي قوة تقف في وجه كل ذلك؟
- قوة المعرفة معها قوة الجسد.
- أنا لا أفهم شيئا من كل ذلك ولا حتى أصدق أن بعض الشباب الواهن يغلب جيش الملك وسحر الكهنة.
قاطع راحال:
- لا تلقيا له بالا، فهو دائما يشكك في كل شيء، لكنه رغم كل ذلك يحلم بالحرية والعدل. وزعتم الأدوار يا فاراس فما دورنا أنا ونيبال؟
- دوركم لا يقل أهمية عن دورنا، عملكم هو مراقبة البصاصين وتضليلهم وتحذيرنا عند علمهم بمكاننا.
قال كيروس:
- لم يبق إلا مكان التجمع، أين سنجتمع بالشباب؟
رد فاراس:
- وادي الموت.
يرد الجميع بدهشة:
- وادي الموت!
- نعم، المكان الوحيد الذي لن يخطر على بال أحد أن به حياة.

١٠

فاتنه في وسط المعبد الصغير على وسادة محشوة بالريش ومكسوة بحرير أحمر. ترتدي عباءة شفافة بدون أكمام، مفتوحة عند الصدر. تفرد شعرها الذهبي على كتفيها. تجلس أمام تمثال صغير للإله الأعظم محاط بالشموع. يدور حولها الكاهن الأصغر ويرش عليها الماء المبارك ويتمتم بكلمات العبادة ثم يستبدل الماء المبارك بالعطر الذي يمسحه بيده على ذراعيها ورقبتها وصدرها. الكاهن أخبرها عند اعتراضها على العباءة أنها الزى الذي يجب ارتداؤه كقربان وأن كل هذه الطقوس طقوس عبادة، فهو يجهزها حتى يقبلها الإله الأعظم كقربان.
فاتنة تثق جدا في ذكائها وجمالها. تعلم أن جمالها هو السلاح الوحيد القادر على مجابهة السحر والتكهن وبذكائها أيقنت أن الكاهن الأصغر يشتهيها وبشدة. انتهى الكاهن الأصغر من وضع العطر على جسد فاتنه ثم استدار ناحية تمثال الإله الأعظم وتمتم باللغة الغريبة ثم على صوته حتى انتهى.

فاتنه: هل قبلنى الاله الأعظم كقربان، سيدي الكاهن؟
الكاهن الأصغر: نعم، قبل الجزء الأول
فاتنه: إذا هناك جزء ثان؟
الكاهن الأصغر: نعم، وبه تكتمل العبادة ويقبلك الإله الأعظم.
فاتنه: وما هو الجزء الثانى من الطقوس سيدي؟
الكاهن الأصغر: سأخبرك به لكن ليس هنا، في غرفة العبادة الخاصة.

تبسمت فاتنه لأنها تأكدت أن ذكاءها لم يخنها وأن الكاهن يشتهيها وبشدة وأن كل ما ستطلبه سيجاب.
فاتنة محدثة نفسها:
- سيظهر بعض القوة والعند لكن مع كل هذا الحسن والدلال لا شيء مستحيل. سأعطيه بقدر ما يستجيب لى، لكن إن غضب سيضيع كل

شيء، لا لن يغضب، تلك النظرة في عينيه، درجة حرارة يده عندما لامست جسدى، النفس السريع المتلاحق، هو يشتهينى وبشدة والشهوة وحش كبير يلتهم كل نقاط قوة الرجل واحدة تلو الأخرى حتى لا يبقى منه سوى الضعف، وعندها يستجيب لأى شيء وكل شيء.

يوقفها الكاهن الأصغر ويفتح جناحى عباءته كغراب أسود كبير. تدخل فاتنة بينهما ثم يغلق جناحيه عليها ويسيران إلى باب غرفة خلف تمثال الإله الأعظم قائلا لها:

- هنا سنكمل النصف الثانى من طقوس القربان يا فاتنتى.

١١

القصر بعد موت الملك بركان على شفا الانفجار، جمرات الفتنة المنتشرة في كل أرجائه وشرر الخيانة المتطاير في هوائه والأكثر من ذلك نار الكراهية المشتعلة بين الوزير وقاهر ابن الملك القابع في غرفة الغسل. قاهر يعلم أن الوزير من كان يدير المملكة في عهد أبيه، يفعل بها ما يشاء حتى إنه كان السبب في استبعاده من بلاط الحكم. الوزير يعلم جيدا ما يكنه قاهر له ورغبته الشديدة في إبعاده عن القصر بأي وسيلة كانت حتى لو القتل، فلذلك اختار الوزير لنفسه حراسة خاصة من جنود يثق بهم ويعلم مدى طاعتهم وأمانتهم.

الكاهن الأكبر في المعبد الكبير يراقب المشهد عن بعد ولا يريد التدخل حتى يرى من له اليد العليا في هذه الحرب الباردة، ويا للروعة لو قضت تلك المعركة على الاثنين معا فيختار هو من يشاء من رجاله للجلوس على العرش.

الأمير قاهر يسير في حديقة القصر مع كاتم سره وصديقه المخلص القائد دون قائد الجيش الخارجي للمملكة ليكونا بعيدين عن أعين رجال الوزير المنتشرين في القصر.

قال الأمير قاهر:

- لا أشعر بالراحة هذه الأيام يا صديقي، حتى النوم صار كعصفور جاث على جفوني كلما أغمضتها طار.

- ولماذا كل هذا الأرق سيدي؟

- الخيانة يا صديقي، أشم رائحتها في كل مكان، وأرى وجهها القبيح في عيون الحرس، في لهيب المصابيح على أسوار القصر. أسمعها في همسات الخدم والمحظيات خلف الستائر.

- الوزير يا سيدي؟

- أعلم أنه يحيك لي مؤامرة كبيرة، لكن كيف أو متى أو أين؟ لا أعلم.

- لا تقلق سيدي، فجنودنا على أهبة الاستعداد لأي شيء.

- جنودنا الذين نعتمد عليهم في معسكرهم خارج المدينة، تلك كانت خطة الوزير أن يبعدك أنت وجنودك في حروب دائمة مع الممالك الأخرى حتى ينفرد هو بكل شيء، يجعل من رجاله المخلصين الحرس الخاص بالملك، وحرس القصر والجنود الراكبين والسيارة داخل نصف المدينة الحي حتى البصاصين في النصف الآخر من رجاله أيضا.
- ولذلك كان يعلم كل شيء يدور في المملكة، يكتشف المكائد والخيانات ويقضي عليها مما جعل الملك الراحل يثق به كل هذه الثقة.
- وهل كنت تصدق؟
- أصدق ماذا؟
- أنه كانت توجد مكائد وخيانات.
- نعم، كانت هناك مكائد وخيانات.
الأمير قاهر يضحك بصوت عال:
- اصنع الوحش واقضِ عليه.
- ماذا؟
- أنا أعلم أنك ماهر جدا في القتال وخطط الحرب والكر والفر لكن أمور البلاط حروب أخرى تحتاج مكرا ودهاء من نوع آخر. كل الفتن والمكائد والخيانات كانت من صنع الوزير ليمكن لنفسه في بلاط الحكم وينال ثقة الملك الراحل. هل تذكر خيانة قائد الحرس السابق؟
- نعم
- من اكتشفها؟
- الوزير
- وكيف؟
- أخبر الملك الراحل أن أحد رجاله في الحرس الملكي سمع بالمؤامرة وأخبره بها.
- وماذا كان عقاب الخائن؟
- القتل، لكن الوزير تدخل في هذا الحكم وأخبر الملك أنه يريد معرفة أسماء باقي الخونة وأن يمهله بعضا من الوقت ثم ينفذ حكم القتل.
- ولم ينفذ حكم القتل إلى الآن.

- لكنه مسجون في سجن المملكة شديد الحراسة.
الأمير قاهر يضحك ثانية:
- اذهب وابحث عنه يا دون، لن تجده، هو الآن منعم في أحد قصور المملكة البعيد عن العيون، اصنع الوحش واقض عليه.
- إذن نقتل صانع الوحوش سيدي.
- لن نستطيع الآن، سيعرف قبل أن نتحرك.
- نباغته هو وجنوده بجنودنا أيها الأمير.
- ستكون حربا أهلية تضيع المملكة فيها ونضيع معها ومن المؤكد أن نصف المملكة الميت سيجدها فرصة سانحة للقضاء على حكمنا للمملكة ووقتها سيتدخل الكاهن الأكبر لنصرته علينا فأنت تعرف مكانة الوزير عنده. وتعرف أيضا أن كلمة الكاهن الأكبر لا يخالفها أحد.
- ما الحل إذن سيدي الأمير، والوزير محاط بكل هذه الحماية؟
- الجنود هم الحل يا دون ولكن ليس بالطريقة التي تفكر بها، بطريقتي أنا. طريقة حرب بلاط الحكم.
- لا أفهم يا سيدي.
- الإحلال والتبديل التدريجي يا صديقي، نستبدل بعض الجنود الراكبين بجنودنا ثم ننتقل إلى جنود حرس القصر ومن ثم إلى جنود الحرس الملكي وهكذا يسيطر جنودنا على كل المملكة.
- الوزير سيعلم ويعترض على ذلك، وأنت لم تتسلم العرش بعد.
- سنخبره أن الجنود داخل المملكة فقدوا الكثير من كفاءتهم القتالية وذلك لعدم تدريبهم لفترة طويلة وهذا يمثل خطرا كبيرا على المملكة من الداخل، سيأخذون بعضا من التدريب في معسكر الجيش الخارجي ويعودون ثانية لمواقعهم.
- هل سيقتنع سيدي؟
- ألم أقل لك يا صديقي، الذكاء في معارك بلاط الحكم يختلف كثيرا عن الذكاء في المعارك بين الجيوش.
يخفض الأمير قاهر صوته خشية أن يسمعه أحد من جنود الوزير داخل حديقة القصر محدثا القائد دون:

- سيقتل جنودك كل فترة جنديا أو أكثر من جنود الوزير داخل المملكة، طبعا دون أن يراهم أحد. سيعرف باقي الجنود بهذه الحوادث ويعم بينهم الخوف والاضطراب والفوضى وينتقل منهم إلى باقي أهل نصف المملكة الحي فيتدخل قائد الجيوش الخارجية للمملكة الذي هو أنت يا صديقي للسيطرة على الوضع ووضع الحل الذي أخبرتك به، الإحلال والتبديل، ووقتها لن يستطيع الوزير الاعتراض ولا حتى الكاهن الأكبر، ما رأيك أيها القائد في خطط بلاط الحكم؟

ينظر القائد دون إلى الأمير قاهر نظرة إعجاب بذكائه الشديد يقابلها ابتسامة مكر تملأ وجه الملك القادم قائلا معها:

- الآن ابدأ يا صديقي في تنفيذ خطتنا لكن كن على حذر شديد فذكاء الوزير لا يستهان به.

١٢

حجرة الوزير في القصر يتوسطها كرسي من الخشب الثمين، مطلي باللون الأسود منقوش عليه حروف العبادة ومزين ببعض الجواهر وعلى حوائطها رسومات لحروب مضت انتصر فيها جيش المملكة. أرض الحجرة مغطاة بسجادة حمراء تشبه السجادة الموجودة في حجرة الملك، في وسطها تمثال كبير للملك الميت وفي أركانها تماثيل لوزراء سابقين. الوزير يجلس على كرسيه ويقف أمامه قائد الحرس.

يقول الوزير:

- ماذا نفعل الآن أيها القائد؟ فالأمير قاهر على وشك الجلوس على العرش وإن جلس أنا وأنت خارج القصر.

رد قائد الحرس:

- والكاهن الأكبر سيدي، ألم تكن عنده لهذا الأمر؟

- نعم، هو أعطاني الوعد، لكن الكاهن الاكبر مع الأقوى دوما، إن تمكن الأمير من القصر فالكاهن معه ما لم يمس المعبد بسوء.

- نجعله يفعل.

- كيف أيها القائد النجيب؟ الكاهن الأكبر بحرسه من الجنود والجن والشياطين لن يعرف المكيدة ومن دبرها؟!

- ماذا سنفعل إذن؟

- نقتل الأمير

- نقتل من؟!

- الأمير قاهر.

- وريث العرش!

- ومن غيره.

- كيف؟!

- هنا تكمن المشكلة، فكر معي

يصمت قائد الحرس بعض الوقت للتفكير ثم يتابع حديثه:

- رشوة أحد حراسه.

- لا نستطيع فهو يغدق عليهم المال ويعاملهم أحسن معاملة
- محظياته، إحداهن تدس له السم.
الوزير: كلهن من الخارج واختارهن بعناية شديدة ويحبونه حبا جما.
- نرسل له واحدة هدية.
- لن يقبلها.
قائد الحرس: ما الحل؟!
- أحد جنودنا يقوم بالمهمة
- كيف؟
- كم تبقى على دفن الملك؟
- قرابة الشهر أو أكثر، الكاهن الأكبر هو من يحدد ذلك.
- إذن لدينا الوقت الكافي لنختار الجندي المناسب من حرس القصر الذين سيؤمنون تابوت الملك عند الدفن ونغدق عليه المال ونضمن له النجاة من الشنق ليقتل الأمير أثناء موكب دفن الملك
- ومن سيقبل بهذه المهمة الخطيرة سيدي؟ إنه ابن الملك!
- ستجد يا قائد الحرس، فهناك من يصنع أي شيء من أجل المال، الآن اذهب وابحث بين جنود الحرس الملكي واكتم الأمر حتى عن نفسك وإلا فرقبتك الثمن، هل فهمت؟
- فهمت سيدي الوزير..

١٣

خارج نصف المملكة الميت وعند نقطة اختباء الشمس من وحش الليل بين مجموعة من التلال على مقربة من جبل المملكة المخيف تقع أرض وادي الموت، قاحلة ليس إلا من نبت شيطاني يقتات على قيح الموتى ودماء الهوام والذئاب المتقاتلة، يربطها بالنصف الميت طريق رئيسي ترابي لنقل موتاهم وأحيانا كثيرة يلقي البصاصون جثث قتلى التعذيب والجوع والكلام فيها دون دفن، بعض الممرات الضيقة التي يستخدمها الهاربون من بطش البصاصين وتعذيبهم للاختباء بين هضابها ونبتها الشيطاني ولا يعرفها سواهم. هذا المكان الميت الأرض والهواء والنبت، بهوامه وشياطينه وسكونه المخيف، اختاره فاراس ورفاقه لتدريب مجموعة الشباب المختارين للثورة. نيبال وراحال يقومان بعملهما على أكمل وجه، مراقبة الطريق المؤدي إلى وادي الموت وتضليل البصاصين. فاراس يستجمع كل قوى الكلمة والمعرفة والحكمة ليبثها في قلوب وعقول الشباب. كيروس بقدرته على القيادة العسكرية ومهاراته القتالية التي تعلمها في المملكة الأخرى أثناء هروبه خوفا من الاعتقال أو التعذيب. فاراس بشخصيته التي تؤهله للزعامة، فهو مزيج من اللين والحزم، القوة والضعف، نبرته الرخيمة تجذب القلوب وتسكت الألسن وتستدعي الآذان. زعيم بالفطرة، الفرق بينه وبين كيروس أنه مزيج من الإقدام والإحجام لكن كيروس دائما مقدم لدرجة التهور.

بدأ بعض الشباب بالدخول إلى وادي الموت من طرق مختلفة وفي أوقات مختلفة كما أخبرهم كيروس الذي كان في انتظارهم مع فارس. كانوا قد اختاروا مكانا للاجتماع داخل وادي الموت تحيطه مجموعة من الحشائش الشيطانية المتشابكة، كستار يمنع عنهم أعين البصاصين الذين ربما يأتون لرمي إحدى الجثث.

بعد أن اكتمل عدد الشباب المختارين للثورة، جلسوا في هدوء تام وإصغاء كامل، على وجوههم مزيج من اليأس والأمل، الخوف والأمان.

يخرج عليهم فاراس بابتسامته الطيبة وجسده النحيف وعينيه اللامعتين المملوءتين بالأمل بجانبه كيروس بنظرته الحادة وبنيته القوية.
يبدأ فاراس بالكلام:
- السلام على نبت المعاناة والقهر والذل، لا غيم سقاهم، ولا برق أضاء لهم، حاربوا الظلمة حتى استأنسوها، ألفوا لجوع وضاجعوا البرد لكن ما زالت عيونهم لامعة بالأمل كنجمين في السماء. جميعنا في نصف المملكة الميت يجلدنا سوط القهر والظلم، تقهرنا قوة الجند والسلطان، ظهورنا أخاديد مملوءة بالدماء والدموع، منا من يرضى بظلمه عن ضعف أصابه أو فاقة أنهكته أو جهل أصاب عقله وكلهم معذورون فلم يجدوا من يأخذ بأيديهم، ومنا من يأبى لقلبه السليم وعقله الواعي الذي يرفض كل أنواع الجبروت حتى لو كانت باسم الإله الأعظم لأنهم يعلمون جيدا أن الإله عادل، وأنتم هنا لأنكم من هؤلاء. نحن هنا لنكون عقلا واحدا ينعم بالمعرفة، معرفة حقوقه والإيمان بها ومن هنا تنبع قوة العقل، نكون جسدا واحدا، سيفا يقطع رقبة الظلم ويطعن صدر القهر وينبت من دمائهما القمح والنور والدفء والعدل ومن هنا تنبع قوة الجسد. هاتان القوتان يا أصدقائي هما جناحا الطائر العظيم الذي سيحلق فوق مملكتنا ليغرد للجميع ويجعل الظل للجميع، محركا جناحيه ليرسل النسيم للجميع، هذا الطائر هو الثورة. هو أول حق من حقوقنا. ثر إن سلبوا منك كرامتك. ثر إن سرقوا منك رغيفك، إن سلبوا منك أمنك. نحن يا أصدقائي بشر لسنا عبيدا لأحد، لسنا عبيدا للقوة والجبروت والسلطة، لسنا عبيدا للفقر. نحن أحرار، أحرار!
يكررها بصوت عال فيردد معه الجالسون.
يتحرك فاراس خطوة للخلف ليتقدم كيروس ليكمل الكلمة للشباب:
- أعلم أنكم لم تقاتلوا قبل ذلك، لم تدخلوا معارك أو حروب، لكنكم منذ صغركم تحاربون الفقر وهو أشد قوة من محاربة الجنود، تحاربون الطبيعة بكل قسوتها. تهرولون وتصعدون وتهبطون. تتحملون حرها الشديد وبردها القارس، رعدها وبرقها وجبالها الوعرة، فاكتسبتم من قواها قوة ومن قسوتها قسوة ومن جبروتها جبروت. أنتم أقوياء رغم

أجسادكم النحيفة، لكن ينقص هذه القوة التدريب على فنون القتال واستخدام السلاح.
قال أحد الشباب:
- كيف نحارب بهذا العدد القليل؟
ونادى آخر:
- وأين السلاح الذي سنحارب به؟
رد كيروس:
أعلم ذلك جيدا، لن نحارب جيش المملكة، لا عددنا ولا أسلحتنا تسمح بذلك.
- ماذا سنفعل إذن؟
- سأدربكم على التسلل والكر والفر على مجموعات صغيرة بأسلحة بسيطة، واحتلال الأماكن المهمة.
نادى آخر:
- وما الهدف من ذلك كله ما دمنا لن نستطيع هزيمة جيش المملكة؟
- الهدف مهما جدا وستعرفه لاحقا، لا تتعجل الأمور يا أخي.
- ومن أين نكسب قوتنا، وقد تركنا المحاجر والمزارع التي كنا نعمل بها؟
- سنعطيكم أكثر مما كنت تأخذون هناك.
المال الذي قسمه عليهم كيروس جمعوه مرة أخرى وادخروه لهذا الوقت وهذه المهمة. جعلوا جزءا منه رواتب للشباب والجزء الآخر لشراء الأسلحة الخفيفة التي سيستخدمونها في ثورتهم.
بعد أن انتهى الشباب من أسئلتهم يكمل كيروس الحديث إليهم:
- الآن وبما أن عددنا قليل سأدربكم في مجموعة واحدة وعند زيادة أعدادنا ستصبحون أنتم من يدربون الجدد، هيا بنا.
تتحرك المجموعة خلف كيروس ليخرجوا من وادي الموت إلى ممر ضيق يؤدي إلى كهف من الكهوف الموجودة في الجبل الملاصق للوادي.
يختفون بداخله لتبدأ مهمة كيروس في تدريبهم.

١٤

نار هادئة تدفئ صحن العبادة في المعبد الصغير، بعض الشموع الصغيرة المشتعلة حول تمثال الإله الأعظم . فاتنة واضعة رأسها في حجر الكاهن الأصغر. سابحة في بحر أفكارها، يداعب الكاهن الأصغر شعرها الناعم الذهبي بأصابع يده وينظر إليها نظرة العاشق المتيم، فقد أسرت قلبه بجمالها الفاتن وسيطرت على فكره بحديثها الناعم. أشعلت جسده نارا لا تخبو من أول عناق.

فكؤ الكاهن محدثا نفسه:

- هي ليست إنسية، هي حورية جاءت من جزر الذهب الساكنة قلب البحر، أو جنية كساها الإله الأعظم لباس الجمال وأخفاها في كهف القمر البعيد ثم أعتقها منحة لكاهنه الذي أضاع عمره في عبادته وخدمته، نعم هي الثواب والنعمة التي أعطاها الإله لي.

فاتنة أفكارها لم تهبط بعد، فما زالت تحلق بجناحيها الكبيرين تتعدى حدود نصف المملكة الميت والمعبد الصغير إلى رحاب القصور الكبيرة والمال والسلطة والراحة.

في هذه اللحظة يقطع حبل أفكارها الكاهن الأصغر:

- فاتنة فتنتني بجمالها. كنجم يلمع في سماء ليل مظلم يسحر الساهرين فلا نوم يريدونه ولا ظلام يخافونه، جل ما يشتهونه هو النظر إليه وأنا لم أنظر إليه فقط بل حدثني وحدثته ولمسني ولمسته وقبلت فاه فارتويت وسكرت وما زلت في نشوتي التي لا تنتهي.

- سيدي! كل هذا الوصف لي؟

- وأكثر يا فاتنة.

ثم يميل برأسه ليلامس رأسها فتغمض عينيها لا تأثرا بذلك لكن لتفكر من أين تبدأ خطتها للرحيل عن هنا. تتحدث معه عن فقرها الذي عانت منه وحياتها البائسة، عن طمع الناس فيها وذلها لهم من أجل رغيف خبز،

وهو ينظر إليها منتبها لكلامها وأحيانا يغمض عينيه تعبيرا عن حزنه الشديد لما حدث لها.

- لا أريد العودة هناك سيدي.
- ومن قال إنك ستعودين؟
- أنا خائفة جدا..
- لا تخافي فأنا بجانبك وسأظل، لن يمسك سوء ولن تعودي إلى ذل الفقر أبدا.
- صحيح يا سيدي؟
ثم تضم ركبتيه إلى صدرها بشدة وتقول:
كثيرا ما حلمت بنصف المملكة الآخر، نصفها الحي بقصوره وبساتينه ونسيم بحره، كنت أغمض عيني وأطير كعصفور في بساتينه وفراشة داخل قصوره وسحابة بيضاء فوق بحره، أتخيل نفسي بفستان مطرز بخيوط الذهب ممزوج بالعطر ومحلى بالجواهر، أجلس على أريكة من الحرير، الكل حولي يتمنون إرضائي، أأمر فأطاع.. أحلام وأحلام يا سيدي..!
- سأجعلك أميرة هنا، سأحضر لك كل ما تشتهين!
- وهناك يا سيدي؟
- سأجعل هذا المعبد قصرك الذي تحلمين به، فستانك المطرز بالذهب، الجواهر والمال!
- لكنه ليس هناك يا سيدي.
- أتريدين مفارقتي يا فاتنة؟
تعتدل فاتنة لمواجهة الكاهن الأصغر:
- أنا، لا، وما المانع أن نكون معا هناك؟
- المانع أني كاهن هذا المعبد ولا أستطيع الخروج منه إلا بإذن الكاهن الأكبر وإلا فالقتل.
- عندي من يحضر لك الإذن يا سيدي.
- من؟

- أنا.
كيف؟ وأنت لا تعرفينه حتى.
- هل تشك في جمالي وذكائي؟
- لا.
- إذن سأخبرك كيف، سترسل يا سيدي رسولا إلى الكاهن الأكبر تخبره بأن لديك قربانا مهما للإله الأعظم قدمه أحد الفقراء لفك سحره الشديد، وأنك لا تستطيع الانتظار ليعاد تقديم القرابين للمعبد الكبير ولا تستطيع إرساله مع أحد خوفا عليه. هنا سيرسل الكاهن الأكبر في طلبك ومعك القربان، ستعطيه القربان وتعود.
- إذن سنفترق يا فاتنة.
- ما هي إلا أياما وسنجتمع ثانية لكن هذه المرة في المعبد الكبير بجانب أكبر قصر في المملكة، قصر الملك سيدي.
- سأموت من شوقي إليك ان لم يحدث ذلك.
- سيحدث يا سيدي، ثق بي سيحدث.
في هذه اللحظة يطرق نيبال باب المعبد الصغير بعد أن أضاع صديقه راحال متعمدا في ممرات نصف المملكة الميت حتى لا يراه وهو قادم. يفتح الكاهن الأصغر باب المعبد وما زالت على وجهه علامات الحزن والأسى من كلام فاتنة
- ماذا تريد؟
قال الكاهن محدثا نيبال.
رد نيبال متعجبا من سؤال الكاهن الأصغر:
- هل هذا الترحاب يليق بقرباني سيدي الكاهن؟
- قدمت القربان وأخذت الثمن.
- أي ثمن؟ وهل ما أخذته يعتبر ثمن، هل هذا الثمن يليق بفاتنة؟
- ماذا تريد يا نيبال؟
- أدخل أولا للصلاة والبركة يا سيدي.
تتدخل فاتنة التي جاءت عندما سمعت صوت نيبال ليسمح له الكاهن الأصغر بالدخول، فيسمح له الكاهن. يدخل نيبال المعبد ملقيا التحية

على فاتنة ثم يجثو أمام التمثال في وسط المعبد الصغير ثم يعود ليجثو أمام الكاهن لأخذ البركة منه وبعدها يكمل حديثه:
- ثمن فاتنة أكثر من ذلك وأنت تعلم هذا جيدا سيدي الكاهن.
- تريد مالا، ذهبا، قل ماذا تريد؟
- أريد أن أكون معكم في نفس القارب المتجه إلى نصف المملكة الحي، تدفع شراعنا ريح واحدة، وتحمينا عباءتك من خبث الشياطين وسحر الجن.
- هل جننت؟ أنت عبد للفقر والذل والمهانة في نصف المملكة الميت، وأنا رسول الإله الأعظم، كيف نكون معا؟ ألا تخشى غضب الإله الأعظم؟
- وهي كانت أيضا.
- كانت، أما الآن قبلها الإله الأعظم قربانا له فهي الآن من خدمه.
- اجعلني أيضا قربانا.
- قربان الرجال أرواحهم، هل تريد أن آخذ روحك؟
- والنساء؟
- أجسادهن.
- سيدي الكاهن..
يقاطعه الكاهن بغضب شديد:
- اسكت وإلا سلطت عليك غضبي وعذابي!
بصوت رقيق عذب تتدخل فاتنة لنصرة نيبال في معركته مع الكاهن الأصغر:
- سيدي، نيبال من جاء بي إلى هنا، أخرجني من مستنقع المهانة وذل الحاجة. لم يطمع بي يوما. كان درعي الذي يحميني في أوقات كثيرة من نهش الذئاب والكلاب وفئران المزابل، أطعمني دون ثمن، فهل تجزيه عنى سيدي؟
- هو من عبيد المملكة ليس له عندي إلا المال.
- اجعله خادم المعبد.
- لا يحق للعبيد أن يكونوا من خدم المعبد.
- اجعله خادمك أنت.

- إن عرف الكاهن الأكبر بذلك سيقتلنا أنا وهو.
- لن يعرف، سيدي الحبيب.
يظهر تأثير آخر كلمة قالتها فاتنة على الكاهن الأصغر، فيتحول كل الغضب إلى هدوء والثورة إلى مهادنة.
- لا مانع من أن تكون خادمي، لكن كن حذرا بألا يراك أحد وأنت قادم إلى هنا.
- أمر سيدي مطاع.
- اذهب الآن.
يتوجه نيبال إلى باب المعبد الصغير خارجا منه، متلفتا حوله حريصا على ألا يراه أحد وخاصة أصدقاؤه تاركا فاتنة ترمي جسدها اللين المثير في أحضان الكاهن الأصغر تخبره بمدى طيبة قلبه وعطفه وحبها له، لتكمل خطتها، فما زال الطريق في أوله والمشوار طويل.

١٥

نصف المملكة الحي بعد ليل طويل مليء كالعادة بالحفلات وكؤوس الشراب ورقص المحظيات داخل قصور الأمراء لكن هذه المرة دون صخب فما زالت المملكة في فترة الحداد التي يحددها الكاهن الأكبر من وقت دخول الملك الميت المعبد الكبير لغسل خطاياه ثم خروجه لدفنه في مقبرته الملكية وتنصيب الملك الجديد. تشرق الشمس من بطن البحر على قتيلين من الجنود السيارة في أحد الطرق الفرعية المؤدية إلى قصر الملك، لم ينتبه لهما سوى إحدى الخادمات التي تعمل بالقصر الملكي أثناء ذهابها إلى القصر. تملك الخادمة خوف شديد وجرت بسرعة نحو بوابة القصر المغلقة من الأمس وطرقت البوابة بقوة وصرخت بأعلى صوتها:

- قتيلين، قتيلين من الجنود!

أسرع حرس البوابة لفتحها وإدخال الخادمة التي هرولت إلى رئيس الحرس بارتعاشة جسدها وخوفها الشديد:

- يوجد قتيلان من الجنود يا سيدي!

- أين؟!

- عند الطريق الفرعي الشرقي المؤدي إلى القصر.

- هل أنت متأكدة؟!

- نعم سيدي، رأيتهما هناك في بركة من الدماء!

- انتظري هنا ولا تتحركي حتى أرجع.

يتحرك رئيس الحرس مسرعا إلى الوزير لإخباره ما قالته الخادمة، محدثا نفسه بدهشة شديدة، متعجبا الخبر. كيف يحدث هذا؟ ومن يجرؤ على قتل جنود المملكة؟!

هذه كانت أول حادثة من نوعها تحدث بين الجنود في نصف المملكة الحي. توجد جرائم قتل لكنها تحدث بين السكان، أسبابها دوما معروفة، الانتقام، الخيانة، الطمع وأحيانا السرقة، لكن بين الجنود فهذه سابقة خطيرة.

يطرق رئيس الحرس باب الغرفة المخصصة بالقصر الملكي لاستراحة الوزير في حالة مكوثه بالقصر لأيام متتالية في الأوقات الصعبة على المملكة، وهل هناك أصعب من هذه الأيام بعد موت الملك. الوزير استيقظ مع شروق الشمس أو كان مستيقظا من الأساس، فلياليه بعد موت الملك يقتحمها القلق ويربكها التفكير. يأذن الوزير لرئيس الحرس بالدخول.

- سيدي الوزير.
- ماذا يا رئيس الحرس، أليس الوقت مبكرا لتعكر صفو هدوئي؟!
- عذرا سيدي، الأمر خطير..
- وما هو هذا الأمر الخطير؟
- قتيلان من الجنود سيدي.
- ماذا؟ أين، ومن أخبرك بذلك؟
- خادمة من القصر، رأتهما وهي قادمة إلى القصر الملكي.
- وأين الخادمة؟
- تنتظر على باب القصر.

يخرج الوزير مسرعا مع رئيس الحرس إلى باب القصر الملكي لرؤية الخادمة وقد أعطى الأمر بتجهيز العربة الخاصة به، انطلقت العربة بهم جميعا إلى مكان الحادثة، ينزل الوزير مسرعا من العربة يتبعه رئيس الحرس.

رئيس الحرس يتفحص القتيلين بدقة، مكان الطعن وطريقته، يبحث عن سلاحيهما. يقف الوزير على بعد خطوات قليلة يمعن النظر إليهما وتنقر الأفكار في رأسه نقرا قويا، محدثا نفسه:

- ما الذي يحدث، لم يمر على موت الملك إلا أيام قليلة، ما الذي سوف يحدث لو علم باقي الجنود؟ أو علم أهل المملكة؟ ستعم الفوضى وينتشر الخوف ونفقد سيطرتنا عليهم.

في هذه اللحظة يقطع رئيس الحرس حبل أفكار الوزير قائلا له:

- ماذا سنفعل سيدي الوزير؟

- انقل جثتيهما إلى مكان بعيد وادفنهما، نبه على الخادمة أن مصيرها القتل لو أخبرت أحدا بما حدث، وحرس البوابة أيضا، لا أحد يعلم يا رئيس الحرس بما حدث اليوم، لا أحد يعلم وإلا.. بعد أن تنتهي عد إليّ بسرعة.
- أمرك سيدي.
عاد الوزير إلى غرفته التي أغلق بابها بعد أن أمر بعدم دخول أحد عليه مهما كان إلا رئيس الحرس عند عودته.
يجلس الوزير حائرا لا يجد تفسيرا لما حدث، تدور به الأفكار في دوائر كثيرة مغلقة كلها متصلة بشيء واحد وهو خوفه الشديد من انتشار الخبر فتكون هذه الحادثة هي أول مسمار يدق في نعش إبعاده عن بلاط الحكم. الوقت لا يمر عند الانتظار، والأفكار لا تنقطع عند القلق، والخوف الذي لم يعرف طريقا إليه بدأ يتسرب لقلبه، محدثا نفسه:
- ما الذي يحدث لك؟ ألهذا الحد أثرت بك هذه الحادثة؟ ولمَ لا، وهي الأولى من نوعها، يقتلون جنودك وعلى مقربة منك، يا لجرأتهم، من هم، وماذا يريدون؟
رئيس الحرس يطرق باب غرفة الوزير عائدا من مهمته وقبل أن ينطق بكلمة يسبقه الوزير بالسؤال:
- هل عاد كل شيء إلى ما كان عليه؟
- نعم سيدي الوزير.
- والخادمة وحرس البوابة؟
- لن يفتح أحد فمه.
- ما رأيك فيما حدث؟
- القتل ليس من أجل السرقة وطريقة القتل تمت بمهارة كبيرة تدل على أن القاتل مدرب تدريبا جيدا.
- إذا ماذا سنفعل يا رئيس الحرس؟
- لا شيء على غير العادة يا سيدي وإلا سنلفت الانتباه لما حدث، فمن الممكن أن يكون حادثا عابرا من أجل أي شيء، الانتقام مثلا.

- اليقظة يا رئيس الحرس، إن غفلنا لدغتنا أفاعي الظلام ونهشتنا الذئاب الجائعة للسلطة، فهذه الفترة مليئة بالمؤامرات، كن يقظا وإلا فأنت تعلم أن هناك الكثيرون ممن يتمنون مكانك.
- أنا خادمك المطيع، صدري درع يتلقى الطعن دونك، ويدي سيفك البتار تقطع به رقاب أعدائك.
- حسنا أيها الجندى المخلص، جهز جنودك المقربين، فنحن في سباق مع الحيل والمؤامرات، من يطعن أولا يضحك آخرا، مفهوم أيها الجندي؟
يأمر الوزير رئيس الحرس بالانصراف ثم يتوجه إلى شرفة غرفته مطلا منها على حديقة القصر التي في أطرافها يسير ابن الملك الراحل مع صديقه قائد الجيش الخارجي.

الأمير قاهر محدثا القائد دون:
- هل تم كل شيء؟
- نعم يا سيدي.
- هل رأوا أحد جنودك؟
- لا، أتموا مهمتهم بنجاح وعادوا إلى معسكرهم على حدود المملكة.
- والوزير، هل علم بمقتلهم؟
- بالتأكيد، لأني عند مروري بمكان الحادث لم أجد القتيلين، بالتأكيد أمر بنقلهما بعيدا حتى لا يعلم أحد.
- الآن يأكله الشك وتنهشه الأفكار يا دون، اطرق على الحديد وهو ساخن، أريد عددا أكبر من القتلى بينهم حتى لا يستطيع إخفاء الخبر عن جنوده أو عن أهل المملكة، أريد الاضطراب والفوضى يا صديقي.
- أمرك سيدي.
ينصرف القائد دون ويتوجه الأمير قاهر إلى القصر الملكي لتناول وجبة الإفطار مع الوزير للتحدث في أمور المملكة والترتيبات التي تليق بنقل الملك الميت إلى مقبرته الملكية.

١٦

قاعة الطعام في القصر الملكي تتوسطها مائدة الطعام التي صممت على شكل رقعة شطرنج، تراصت عليها الأواني الذهبية والفضية كعساكر اللعبة وأحصنتها وأفيالها وطبياتها لحماية الملك، مع أن كرسي الملك ينتظر من يجلس عليه. عن يمين كرسي الملك الفارغ يجلس الأمير قاهر وعن يساره يجلس الوزير، كأنهما في مباراة للشطرنج تنتظر الفائز لكن ليس بتحريك القطع بل بتحريك الأفكار والحيل، يتراشقان بالنظرات فسهم يصيب وآخر يخطئ ويتبادلان الابتسامات مليئة بالمكر والكراهية.

- ما أحوال المملكة يا وزير المملكة؟
- طيعة كقطعة الجبن التي بين يديك سيدي الأمير.
- لكنها تحتاج لسكيني لأقطعها.
- حذار سيدي من القطعة الكبيرة فمن الممكن أن تقف بالحلق فتسبب الاختناق.
- أملك من الأسنان ما يستطيع سحقها.
- لكنها تحتاج كأسا من الماء كي تبلع، وقنينة الماء هنا بجانبي.
- ما أكثر الخدم في المملكة ليقدموا لي الماء.
- ليسوا كخدم القصر سيدي، فخدم القصر يعرفون الطريق والطريقة.
- نريد أن نخترع طرقا جديدة تليق بالملك الجديد.
- نعلمهم سيدي.
- لن يستطيعوا يا وزير، فلا أجسادهم تقوى ولا عقولهم تعي.
- لكنهم يملكون خبرة السلطة والحكم.
- ومن أدراك يا وزير بأن القادمين لا يملكون الخبرة؟ حتى إن كانوا، فأجسادهم تقوى وعقولهم تستوعب جيدا وبسرعة.

الوزير يحرك رأسه بالإيجاب مع ابتسامة ماكرة، ثم يطلب الإذن بالانصراف فيرد عليه الأمير قائلا:

- لم نكمل حديثنا بعد
- وعن أي شيء نتحدث؟

- أمور المملكة وأحوالها يا وزير.
- كل شيء بخير في نصف المملكة الحي، الخزائن مملوءة بأموال الضرائب والبضائع التي نصدرها للممالك الأخرى. مخازن القمح لا تنفد. مزارعنا تنتج بخير، ومحاجرنا تعمل بجد. الجنود في الداخل مسلحون بأحدث الأسلحة، والحدود مؤمنة بجيش المملكة الخارجي.
- ماذا عن نصف المملكة الميت؟
- لا جديد. ما زالوا يدورون في ساقية البحث عن الفتات. قواهم ضعيفة وعزيمتهم خائرة. ألسنتهم خرساء، آذانهم صماء، عيونهم عمياء، وجنودنا البصاصون هناك يمتلكون زمام الأمور.
- حمدا للإله الأعظم، ماذا عن ترتيبات دفن الملك؟ هل أعددت كل شيء؟
- نعم، حفل التأبين بموسيقاه وطابور عرض الخيول والجنود وقوائم الحضور من الممالك الأخرى وأماكن إقامتهم كلها جاهزة.
- ماذا عن الحضور من داخل نصف المملكة الحي؟
- أهل نصف المملكة الحي سيكونون على جانبي الطريق المؤدي إلى المقبرة الملكية.
- أحسنت. هل زرت المعبد قريبا؟
- نعم سيدي.
- ولماذا؟
يسكت الوزير لبعض الثواني ثم يجيب:
- ذهبت للعبادة.
- للعبادة فقط؟
- وماذا غير العبادة هناك سيدي.
يبتسم الأمير ابتسامة مكر يخبر بها الوزير أنه على دراية بكل تحركاته ومكائده وحيله، فيرد عليه الوزير بنفس الابتسامة طالبا الإذن بالانصراف فيجيبه الأمير:
- لم تكمل إفطارك بعد يا وزير الدولة.
- شبعت سيدي الأمير، أشكرك وسأترك لك الجبن لتهنأ به.

يخرج الوزير من قاعة الطعام والأفكار تنقر في رأسه والخوف يتسرب إلى قلبه، سائلا نفسه:
- ما الذي سيعده الأمير لي في الأيام القادمة؟

١٧

في الجبل المحيط بوادي الموت تزداد الحركة حماسا، والأجساد قوة وقسوة، والعقول علما وحكمة. أتقنت الأيادي التعلق واعتادت الأرجل التسلق. الرجال تعلموا الكر والفر والانقضاض والاقتحام وعقولهم امتلأت باليقين وتشبعت بالحق، حق المقاومة ورفض الذل والمهانة والعبودية، وأضاءت بالمعرفة، معرفة حقوقهم، ما لهم وما عليهم.
كيروس يقوم بدوره على أكمل وجه يبث فيهم شجاعة المعركة ويعلمهم مكر الثعالب وضراوة الذئاب وجلد الصخر. فاراس يطعمهم من حكمته ويسقيهم من هدوئه وسكينته، يطبب وجع أجسادهم بابتسامته الصافية ويقوي قلوبهم بالإيمان واليقين.
لا شيء يرهبهم الأن، الجبل لان بين أيديهم وتحت أقدامهم، البرق مصباحهم يضيء لهم ظلمة الليل، والرعد موسيقى للكون. استأنسوا الجن والشياطين وروضوا الذئاب والضباع فساقت لهم غزلان الصحراء.
زاد العدد في الجبل لكنه لم يصل للعدد المطلوب فمعظم الشباب في نصف المملكة الميت إما لاهث خلف رغيف خبز أو مستعبد في حظيرة من حظائر الأغنياء أو مستسلم لليأس والمرض ينتظر الموت الذي لا يأتي.
فاراس وكيروس يجلسان سويا بعد يوم شاق من التدريب، الشباب افترشوا الحصى ليستريحوا من تعب اليوم، والتحفوا ظلمة الليل بعد نهار شديد الحرارة.
قال كيروس محدثا فاراس:
- ماذا بعد يا صديقي؟
- ننتظر الأخبار من نيبال.
- أي أخبار؟ فالوقت يمر والملك الميت على وشك دخوله مقبرته!
- لن نستطيع التحرك إلا بعد أن يخبرنا نيبال بالوقت المناسب، فنيبال هو الوحيد الذي نثق بأخباره.

- أخاف أن يتسلل الملل إلى الرجال ويتمكن منهم اليأس فيتركونا الواحد تلو الآخر، فكثيرا ما سألوني عن موعد التحرك وكل مرة نفس الإجابة، لم نستعد بعد.
- لا أدري يا كيروس، نيبال مختفٍ منذ فترة.
- لن أخفي عليك يا فاراس، بدأت أشك في غياب نيبال المتكرر بدون عذر!
- كيف يا صديقي؟! وهو ضلعنا الرابع والأذن التي نسمع بها الأخبار، أين راحال؟
سؤال يخفي به فاراس شكه أيضا عن صديقه.
- في مكانه الخاص بالمراقبة.
- اذهب الآن للنوم يا صديقي ولا تشغل بالك بأمر نيبال فأنا أعرف أنه سيأتي بعذره وخبره المهم.
- أراك في الصباح يا صديقي.
يذهب كيروس للنوم تاركا صديقه وحيدا يحدث نفسه.
- هذا ما كنت أخشاه، أن يتسلل الشك إلى كيروس من ناحية نيبال. كثيرا ما هششت طيور الشك عني، فكيف أهشها عنك يا كيروس، يا خوفي من أن يتمكن الشك منك، ستكون العواقب وخيمة والنهاية حتما دماء، ليته جاء، أين أنت يا نيبال!

١٨

حجرة صغيرة في بيت متهالك يشق ظلامها ضوء فتيل شاحب، وحصير من البوص في أحد أركانها يتكور عليه شاب نحيف كقنفذ فقد شوك حمايته فوضع رأسه بين ركبتيه خوفا من سهام الظلام والوحدة، هو نيبال يدفن رأسه لكن دقات قلبه العالية الصوت كطبول الحرب تأذن ببدء قتال عنيف بين جيوش أفكاره، وعده لأصدقائه على الوفاء والمقاومة مهما كان الثمن، طموحه وتطلعه ورغبته الشديدة في الوصول لنصف المملكة الحي مهما كانت الطريقة والضحايا.

تأمل نيبال محدثا نفسه:

- ملعون هذا الظلام الجاثي على صدري، يكسر ضلوعي ويحتل الهواء الداخل إلى رئتي فيجعل داخلي كخارجي. ظلام من الخارج وظلام من الداخل. ملعونة هذه الوحدة التي تقتاتني كل يوم، أتت على كل شيء فأخذته، ملعونة هذه الرائحة النتنة، رائحة أجسادهم وفئرانهم، بولهم وقذارتهم، كرهت كل شيء هنا، وجوه الناس البائسة وعيونهم الخائفة. الشيوخ موتى والشباب عجزة و النساء نائحات. يتسابقون في الحقد والكره ويصبون لعناتهم على أنفسهم.

يصمت نيبال بعض الوقت يصارع شيئا ما داخل عقله ثم يكمل:

- مغلوب على أمرهم، نعم، هم كذلك قهرهم الظلم وغلبهم طغيان الحكم وجبروت السلطة. يحاربون في كل اتجاه بأيديهم الخاوية وأجسادهم المريضة وعقولهم المغيبة. هم ضعاف يحتاجون من يأخذ بأيديهم ويحنو عليهم.

يصمت ثانية مع تحريك جذعه أماما وخلفا قائلا:

- لكنهم جبناء يخشون أي شيء وكل شيء. يفرطون في أي شيء وكل شيء خوفا من سوط الحاكم وخشية ضياع فتاتهم الذي يلقونه إليهم، نعم هم عبيد الفقر، أسرى الفتات. سيبيعوننا مع أول رغيف خبز أو قطعة نقود.

يضحك نيبال ضحكة جنونية تستمر بعض الوقت وتعتري وجهه علامات الاستغراب والدهشة قائلا:
- الغريب أنهم يعتمدون عليهم، نعم، أصدقائي يعتمدون عليهم ويتعشمون في نجدتهم وقت الثورة، لكنهم سيخذلونهم وسيتخلون عنهم، عبيد الفقر لا ينجدون أحد، عبيد الفقر لا يثورون. ولذلك سأظل في طريقي مهما كان وسأصل إلى نصف المملكة الحي مهما كانت النتائج ومهما كانت السبل ومهما كانت التضحيات.

١٩

يقف الكاهن الأصغر وفاتنة على باب المعبد الكبير المطل على ساحة القصر يطلبون الإذن بالدخول من حارس باب المعبد،
حارس باب المعبد يسأل:
- من أنتم؟
- كاهن المعبد الصغير وقربان الإله الأعظم.
- وهل أذن لكم الكاهن الأكبر بالقدوم؟
- نعم.
- انتظرا هنا حتى أخبر الكاهن الأكبر.
يدخل الحارس إلى المعبد الكبير ثم يعود بعد فترة قصيرة ليأذن لهما بالدخول. يسيران في ممر على امتداده مجموعة من التماثيل الصغيرة للإله الأعظم وعلى جدرانه رسومات خاصة بالعبادة. حتى وصلا إلى باب القاعة الكبيرة للمعبد، ثم جثيا على ركبتيهما ينتظران أمر الدخول من الكاهن الأكبر. حتى أشار لهما.
- السلام على رسول الإله الأعظم وكاهننا الأكبر ومعلمنا الأوحد يقول الكاهن الأصغر.
- السلام على تلميذيالنجيب وخادم إلهي الأعظم.
يرد الكاهن الأكبر ثم يشير إلى الكاهن الأصغر ليجثو تحت قدميه ليمنحه من البركة والرضا، ثم يكمل:
- أتمنى أن يكون القربان يستحق كسر قواعد العبادة أيها الكاهن.
- سترى بنفسك سيدي.
- لكن لماذا كل هذه العجلة؟
- الخوف سيدي
- من ماذا أيها الكاهن؟
- من فقدها سيدي لأي سبب، فهي هدية ثمينة وتجارة رابحة.
- ألهذه الدرجة؟
- وأكثر سيدي، .. يشير الكاهن الأصغر إلى فاتنة قائلا لها:

- اكشفي وجهك يا فاتنة
تكشف فاتنة عن وجهها وشعرها اللذان غطتهما بناء على أمر الكاهن الأصغر خوفا من طمع الأمراء أو المخولين بجلب محظيات القصر لو رأوها أثناء قدومهما إلى المعبد الكبير. يظهر سحر وجهها بجماله وصفاؤه وبياضه، وشعرها بطوله ونعومته ولونه. كل هذا السحر والجمال يذهب بلباب الكاهن الأكبر ويأسر ناظريه فيغشاه صمت لفترة يستجمع كلماته التي يستحقها كل هذا الجمال.
- يا إلهنا الأعظم! وكأن كل ما في الكون من جمال اجتمع فيك، سحر القمر في وجهك، وفتنة الذهب في سنابل شعرك، وروعة البحر في عينيك!
ثم يأمر فاتنة:
- اخلعي عباءتك يا فتاة.
تخلع فاتنة عباءتها فيظهر قميصها الوردي القصير الذي اختاره لها الكاهن الأصغر لعلمه بحب الكاهن الأكبر لهذا اللون، تتسع عينا الكاهن الأكبر من روعة جسد فاتنة ونحتها المتناسق المنسجم.
- ما هذا الجمال لبشر!!!
ردت فاتنة:
- خادمتك يا سيدي.
قال الكاهن الأصغر:
- هل يقبلها إلهنا الأعظم سيدي؟
- سأرى أيها الكاهن إن كان سيقبلها أم لا، اذهب أنت الآن لمعبدك الأصغر وتعبد أكثر واحذر منهم، فعبيد الفقر لا أمان لهم.
- أمر سيدي.
يخرج الكاهن الأصغر من باب القاعة الكبيرة عابرا الممر إلى الباب الخارجي الكبير المطل على ساحة القصر منه إلى معبده القابع على مشارف نصف المملكة الميت ولا شيء في ذهنه سوى خوفه الشديد من فقد فاتنة وما يفعله به الشوق إليها سائلا نفسه مجيبا عليها:

- هل تصدق فاتنة؟ هل تكون مفتاحي لدخول المعبد الكبير؟ وهل تستطيع خداع الكاهن الأكبر بسحره وتكهنه؟ نعم، هي تقدر، فسلاح جمالها وأنوثتها لا يستطيع أحد مجابهته حتى الجن والشياطين.
يجلس الكاهن الأكبر على كرسيه المواجه لتمثال الإله الأعظم مستجمعا كبريائه وهيبته. ينظر إلى الفتاة بنظرته الحادة فتخترق نظراته قلب فاتنة التي على بعد خطوات منه، ولأول مرة يتسلل إليها الخوف، ولأول مرة تشك في سلاحها الفتاك وقدرته في التأثير على الكاهن الأكبر، الذي يبدأ في الحديث معها:
- من أي مكان أنت؟
- نصف المملكة الميت سيدي.
- من العبيد، لكن كيف تنبت زهرة نوار الشمس في بركة العفن؟! وكيف يخرج البحر من مستنقع القذارة؟!
- إرادة الإله الأعظم سيدي، هو من منحني كل ذلك، ولذلك أقدم نفسي قربانا له.
- ألا تعلمين أن قرابين العبيد لا يقبلها الإله الأعظم؟ فنقدمهم أضاحي لشياطين السحر والشعوذة.
- أعلم سيدي، لكن ذلة الجوع ومهانة بيع الجسد من أجل الخبز أقسى، فالموت على باب الإله الأعظم خير من الحياة هناك في مستنقع القذارة.
- إذن أنت على استعداد بالتضحية بكل هذا الجمال من أجل الشياطين.
- من أجل أي شيء سيدي، يكفيني الوصول للوقوف بين يديك.

يصمت الكاهن الأكبر لفترة من الزمن ثم يبدأ بالتمتمة بلغة غير مفهومة. يعلو صوته تدريجيا حتى يصبح كالرعد، تضع فاتنة يدها على أذنيها من شدته. فجأة تشتعل نار كبيرة أمام تمثال الإله الأعظم ترتعد منها فاتنة.
- ألقي بنفسك في النار يا فتاة، حان وقت التضحية.
ترتعد مفاصل فاتنة ويغشاها خوف شديد، تضربها الأفكار في رأسها بمطرقة اليأس وخيبة الأمل محدثة نفسها

- هل كل ما فعلته من أجل هذه النهاية؟ الحرق، يا لغبائي الشديد. إن عصيت أمره قتلت بحد السيف، وإن أطعته قتلت بالحرق، في الحالتين الموت. إذن فالطاعة أفضل حالا من المعصية.
- هيا يا فتاة، حان وقت التضحية.
تتحرك فاتنة في اتجاه النار، يكاد قلبها أن يخترق صدرها للهروب، يتصبب عرقها من مسامها بكثرة. تقدم قدما وتؤخر أخرى حتى وصلت للنار وحينها بدون تردد ألقت نفسها فيها. في نفس اللحظة انطفأت النار وكأنها لم تكن. تظهر فاتنة عارية من كل شيء إلا جسدها الناعم الذي تزينه حبات العرق المنتشرة عليه ودموعها المنهمرة على خديها كنهرين.
يخلع الكاهن الأكبر عباءته ويغطي بها جسد فاتنة محدثا إياها:
- لم أرَ جسدا بهذا الجمال، ولا عرقا بهذه الرائحة العطرة، ولا بكاء بهذه الروعة. نجحت في اختبار الطاعة. أنت الآن من سكان المعبد يا فاتنة.
ينادي الكاهن على إحدى محظيات المعبد آمرا إياها:
- جهزي غرفة لها وحدها وأعدي لها الطعام والشراب، وقبل كل ذلك خذيها للاغتسال في حوض المعبد المبارك، اذهبي معها يا فاتنة، فأنت الآن في النعيم والخير.

٢٠

حالة من الخوف والاضطراب تجتاح نصف المملكة الحي، الجنود القتلى في كل مكان، على أطرافه وفي شوارعه، قتل فردي وأحيانا جماعي. تختلف طرق القتل لكنها دوما تؤدي إلى أن القاتل مدرب جيدا. لم يستطع الوزير وقائده كتمان هذا الخبر كثيرا، علمه الجنود ثم انتقل الخبر سريعا إلى سكان نصف المملكة الحي. الأمراء يخافون على حياتهم والتجار على أموالهم. الخوف تسرب إلى كل شيء حتى وصل خارج القصر بين حراسه وجنوده بل ووصل أيضا داخل القصر بين محظياته وخدمه، حتى الكاهن الأكبر تسرب إليه القلق خوفا من فقد السيطرة على المملكة وخصوصا نصفها الميت إن علم بما يدور في النصف الحي.
صباح شاحب، حركة مضطربة من حرس القصر، أصوات تتعالى داخل أروقة القصر. الخوف يملأ الوجوه والقلق يخيم في حجراته فهناك قتيلان في ساحة القصر. هل وصل الحد إلى قتل حرس القصر؟! كيف استطاعوا الوصول إلى هنا وهنا خيرة جنود المملكة! الكل يتساءل وينتظر الجواب. والسؤال والجواب والمشكلة والحل بين ألسنة وعقول المجتمعين في قاعة الاجتماعات داخل القصر.

الوزير ومعاونه قائد الحرس، الأمير وصديقه قائد الجيش، الكاهن الأكبر.
قال الكاهن الأكبر:
- ما الذي يحدث يا وزير الدولة؟
- لا شيء سيدي، حوادث فردية لأسباب شخصية.
قال الأمير قاهر:
- فردية.. والقتل والقتلى في كل مكان، مرة في الجنود الراكبة وأخرى في الجنود السيارة وأخرى في معسكر الجنود الداخلي حتى وصل الأمر إلى هنا ساحة القصر يا وزير الدولة.
رد الوزير:

- العدد قليل سيدي الأمير، حتى التحقيقات التي أشرف عليها رئيس الحرس بنفسه أثبتت أن القتل لأسباب شخصية، الغيرة، الحقد. تكلم يا قائد الحرس.
قال قائد الحرس:
- نعم كل حوادث القتل كانت لأسباب شخصية
رد الأمير قاهر:
- وقتيلا اليوم، لأسباب شخصية أيضا؟ فعلى حد علمي أنهم من جنود حرس البوابة الرئيسية وأنتم تعلمون جيدا أن هذا المنصب من المناصب المهمة في الحرس. هناك خلل أيها الوزير مهما كان سببه يجب معالجته فورا قبل أن تزداد الأمور سوءا!
رد الوزير:
- هناك من يريد نشر الفوضى في نصف مملكتنا.
سأل الكاهن الأكبر:
- من أيها الوزير، هل لديك أسماء؟
- حتى الآن لا، لكن حتما سنعرفه.
قال الأمير قاهر:
- متى؟ عندما نفقد السيطرة على المملكة! الخلل واضح سيدي الكاهن.
رد الكاهن:
- أين؟
- في الجنود أنفسهم سيدي الكاهن، تدريبهم القديم وعدم إشراكهم في الحروب قلل من كفاءتهم، فأصبحوا عرضة للقتل.
قاطع الوزير:
- هل تشكك في قدرات جنودي سيدي الأمير؟
- أنا لا أشكك، لكنها الحقيقة. منذ متى لم يشارك جنودك في معارك حقيقية أيها الوزير؟ كل همهم هو البحث عن المتسللين ومطاردتهم والقبض عليهم وهذه ليست حروب.
قال الكاهن الأكبر:
- ما الحل إذا يا أيها الأمير؟

- يوجد حل سيخبرنا بها القائد دون، تكلم أيها القائد.
- الإحلال والتجديد سيدي الكاهن، نأخذ عددا من جنود نصف المملكة للتدريب في معسكر التدريب الخارجي ونستبدلهم بجنود من المعسكر مدربين تدريبا جيدا.
قال الوزير:
- كيف؟ وجنود المعسكر الخارجي لا يعرفون المملكة من الداخل جيدا!
رد القائد دون:
- سيعرفهم بها جنود الحرس الداخلي.
- وما المشكلة في جلب بعض قادة جنود الجيش الخارجي لتدريب جنود المدينة في الداخل.
هتف الأمير قاهر:
- المشكلة في الوقت أيها الوزير، لا وقت لدينا فحالة الفوضى والاضطراب تزداد يوما بعد الآخر!
- لكن..
يقاطعه الكاهن الأكبر:
- ليس هناك وقت لكن أيها الوزير، الحالة تزداد سوءا وسكان نصف المملكة الحي يزدادون اضطرابا وخوفا والمشكلة الأكبر أن تصل هذه الأخبار إلى نصف المملكة الميت فينتهزونها فرصة للنيل منا، وقتها لن يرحموا أحدا ولن يبقى أحد في مكانه، فهمت يا وزير؟
- فهمت سيدي الكاهن.
- الآن أيها الأمير قاهر نفذ خطتك ولكن بسرعة فليس لدينا وقت للتفكير أو الجدال وأنا معكم بعبادتي وسحري وتكهني وكل ما أملك من أسلحة، يرعاكم الإله الأعظم ويمدكم بقوته وعونه، انصرفوا الآن واتحدوا وتعاونوا وإلا كلنا خاسرين.

٢١

يجلس الكاهن الأصغر في ركن المعبد واهنا حزينا يقتات ذكراها ويستدفئ بما تبقى من أنفاسها. يستأنس بأثر لمسها على جسده. يتنهد التنهيدة من أساها وحزنها تنطفئ الشموع حول الإله الأعظم. نسي العبادة والإله والقرابين، كل ما يتذكره صوتها الناعم وضحكتها الصافية، جمالها الرائع ولمستها الحنونة. تمكن الحب منه واحتله الشوق وأسره الحنين إليها.
يطرق نيبال باب المعبد مرة بعد مرة حتى انتبه لطرقه الكاهن الأصغر. يفتح الكاهن الباب ويعود أدراجه إلى مكانه الذي قام منه. يرى نيبال الحزن مخيما على كل شيء في المعبد. الشموع مطفئة. رائحة العطر بدلتها رائحة الأسى والحزن، القرابين مبعثرة في كل مكان. ينظر للكاهن الأصغر فيرى عينين عشش فيهما الحزن ووجها تمكن منه الأسى وجسدا نهشه اليأس. يجلس نيبال بجانبه محدثا إياه:
- ألهذا الحد سيدي تعشقها؟
- وأكثر يا نيبال.
- مع أنها لم تمكث هنا طويلا.
- حجم العشق ليس بطول الوقت، لكنه بكبر الأثر الذي يتركه المعشوق في قلب عاشقه. أتدري يا نيبال ممَّ أخاف؟
- ممَّ يا سيدي؟
- ألا أراها ثانية، وعندها الموت أفضل لي من نعيم المعبد والعبادة.
- ستراها وقريبا يا سيدي.
- حقا يا نيبال؟
- نعم، فأنا أعرفها جيدا، نبت ظهر في مستنقع القذارة وحظيرة العبيد لكنه يفي بوعده دائما.
- وهي وعدتني يا نيبال أن نلتقى هناك.
- وستفي بوعدها سيدي، ولكن بالشرط المتفق عليه.
- وما هو؟ فأنا لا أتذكر.
- ثلاثتنا هناك يا سيدي. أنت وهي وأنا.

- نعم، تذكرت، لكن كيف؟
- هي ستتدبر أمر دخولك هناك، أعرف ذلك جيدا، لكن أمر دخولي يعتمد عليك.
- هل تريد أن تكون معها هناك؟
- سيدي الكاهن كل ما يعنيني هو هناك، لا فاتنة ولا غيرها. كل ما يعنيني المال والمكانة والهروب من العبودية التي عشت بها كل حياتي السابقة، وكل هذا يعتمد عليك سيدي الكاهن.
- يعتمد عليّ، كيف؟
- ستدبر لي أمر دخولي.
- أدخلك هناك! المعبد الكبير بحرسه وسحره والأهم من ذلك كله كاهنه الأكبر! أتريد أن نقتل سويا هناك؟!
- نقتل إن اكتشف الكاهن الأكبر خطتنا، ولن يكتشف. ما عليك فقط سوى إدخالي بأي طريقة حتى لو اكتشفوا أمري فلن أخبرهم عنك وهذا وعد مني.
يسكت الكاهن الأصغر لفترة يحاول التفكير فيها للعثور على طريقة لإدخال نيبال المعبد الكبير، وبعد تفكير يعثر الكاهن على الطريقة.
- وجدتها يا نيبال، لكن عدني ثانية بأنك لن تخبرهم عني إن اكتشفوا أمرك.
- أعدك سيدي الكاهن.
- حسنا، في آخر العام سيأتي موعد تقديم القرابين من المعابد الصغيرة إلى الإله الأعظم في المعبد الكبير، كل كهنة المعابد الصغيرة يذهبون إلى هناك لتقديم قرابين العام المنقضي وأحيانا يجلبون معهم خدامهم لمعاونتهم في فرز وترتيب وتقديم القرابين. سآخذك معي وأدخلك هناك على أنك خادمي وبعدها لا أعرفك ولا تعرفني عليك التصرف بمفردك، وحذار فالكاهن الأكبر لا يستهان به.
- اتفقنا. ما حال نصف المملكة الحي سيدي؟
- ليست جيدة يا نيبال.
- من المؤكد أن موت الملك يؤثر فيها.

- ليس موت الملك فقط ن بل هناك حالة من الاضطراب والقلق وأحيانا تصل إلى الفوضى.
- اضطراب وقلق وفوضى لهذه الدرجة، ولماذا يا سيدي؟
- الخبر الذي جاءني يقول بأن هناك حالات من القتل بين جنود الحرس الداخلي تزداد يوما بعد يوم ولا أحد يعرف السبب أو القاتل.
- ماذا؟
- نعم هذا ما يحدث الآن هناك.
يبتسم نيبال بعد سماع الخبر، فقد نجاه هذا الخبر من هول الأسئلة الكثيرة التي ستصب فوق رأسه من أصدقائه عن سبب طول غيابه، فالآن لديه الحجة والسبب المقنع والإجابة القاطعة، فخبر كهذا يسكت ألسنتهم ويشغل عقولهم ويهدئ ظنهم وشكهم
- أشكرك سيدي الكاهن، ولا تنسَ موعدنا للذهاب هناك.
- كيف أنسى يا نيبال وروحي هناك.
- هل تأذن لي سيدي بالانصراف؟
- نعم، اذهب، وادعُ لي الإله الأعظم أن تصدق فاتنة.
- أمر سيدي الكاهن.
ينصرف نيبال مسرعا ليلقى أصدقاءه وفي جرابه هذا الخبر الثمين.

٢٢

شباب المقاومة ينعم بالنوم في كهف من كهوف الجبل المجاور لوادي الموت بعد عناء يوم طويل من التدريب. الأصدقاء ليلا في وادي الموت يجلسون في مكانهم المفضل المحاط بالأعشاب الشيطانية، ففي الليل لا يجرؤ أحد على الاقتراب من وادي الموت ولا حتى بصاصو الملك. نيبال بين رفاقه بعد غياب طويل ومعه حجته التي تدحض ظنهم وتهدئ شكهم.

قال فاراس:
- مرحبا يا أصدقائي، مرحبا مربع الحياة ومقبض سيف الحرية.
رد راحال:
- ومن هم نصل السيف؟
- الشباب النائمون في الكهف، فبدونهم لا طعن للسيف وبدوننا لا مسك له.
سأل كيروس:
- أين كنت يا نيبال؟
- أليس هناك مرحبا أولا، ألم تفتقدني يا كيروس؟
- أجب عن سؤالي أولا!
قاطع راحال:
- اهدأ يا كيروس، لمَ كل هذا الغضب؟
قال فاراس:
- مرحبا يا نيبال، افتقدناك بالفعل، فأنت ضلعنا الرابع ومكمل أركان البيت الذي نأمن داخله.
رد نيبال:
- أشكرك يا فاراس، أرأيت يا كيروس هكذا تكون البدايات وعموما سأجيب عن سؤالك، ربما تهدأ ثورتك، وتخمد نار شكك.
رد كيروس:
- أي شك؟!

- لا شيء، المهم كنت أبحث لكم عن أخبار نصف المملكة الحي، أنتم تعلمون بعد موت الملك لا بد من أخبار فالصراع على الأماكن في بلاط الحكم والسعي وراء التمكين وخوف الرجال القدامى من العزل أو الإبعاد. كل ذلك يحاك بالمؤامرات والخطط مما يخلف بعض الاضطراب والفوضى.
سأل فاراس:
- وهل هناك اضطراب وفوضى؟
- نعم.
سأل كيروس:
- كيف؟
رد نيبال:
- استعدوا لسماع المفاجأة، الجنود تقتل في نصف المملكة الحي.
تعجب فاراس:
- ماذا؟!
سأل كيروس:
- جنود الجيش الداخلي؟
رد نيبال:
- نعم.
سأل فاراس:
- ومن يقتلهم ولماذا؟
رد نيبال:
- لا أحد يعلم.
سأل كيروس:
- وأين ابن الملك، والوزير، وقائد الحرس؟ أين الكاهن الأكبر؟ بسحره وتكهنه وجنوده، لا يعلم من يقتل الجنود.
- هذا كل ما أعرفه، الجنود تقتل وحالة من الاضطراب والفوضى والخوف تزداد يوما بعد يوم.
كيروس: لماذا كل هذا الصمت يا فاراس؟

أجاب فاراس:
- أفكر في الذي يحدث هناك.
سأل راحال:
- وإلى أي حد ذهب تفكيرك؟
- بداية الحيل والمكائد والخطط للتمكين. ابن الملك يريد أن يمكن لرجاله ويسحب البساط من تحت أقدام الوزير، والوزير يحاول المحافظة على سلطته ورجاله، والكاهن الأكبر يراقب من بعيد حتى لا تلوث هيبته تلك المكائد وينتظر التدخل في الوقت المناسب.
قال كيروس:
- إذن حان الوقت لنبدأ خطتنا!
- أظنه حان.
قاطع نيبال:
- بهذا العدد القليل من الشباب النائمين في جوف الجبل، بالأيدى الخاوية والسلاح البسيط!
رد كيروس:
- لكنهم مدربون على أعلى درجات القتال، ولسنا في حاجة للعدد لأننا لن نواجه جيش المملكة في حرب عادية، لكنها حرب إضعاف وانقضاض واحتلال أماكن مهمة.
- حتى لو كان، فلن يجاروهم في العدد والعدة.
قال فاراس:
- لا تقلق يا نيبال، فالرجال تدربوا جيدا، كل واحد منهم يعرف دوره ومهمته. قويت أجسادهم وخفت حركاتهم وامتلأت عقولهم بالحكمة وقلوبهم بالإيمان واليقين والأهم من ذلك كله أنهم لن يكونوا بمفردهم فأنا على يقين أن سكان نصف المملكة الميت سيخرجون لنصرتهم والوقوف بجانبهم.
قال راحال:
- أتظن ذلك يا فاراس؟

- بكل تأكيد فهم كانوا يستصغرون عددنا أما الآن فنحن أكثر وأقوى وأشجع، أيدينا متشابكة وأجسادنا واحدة وقلوبنا على قلب رجل واحد.
قال نيبال:
- أشك في ذلك، سيبقون كما هم ينتظرون المنتصر ليركعوا له ويظهروا الطاعة والذل، من ولد عبدا ورضع لبن الذل والمهانة واستساغه وفطم على الجبن لن يثور، هو فقط ينحني لسيده. سنحارب بمفردنا لن يحمى ظهورنا أحد ولن يمد لنا يد العون أحد. العبيد لا تثور.
تعجب كيروس:
- ألسنا منهم؟!
- نعم منهم ولكن لسنا مثلهم، والدليل أنتم. أنت يا كيروس هربت من المملكة لأنك لم ترضَ بالانحناء أمام أحد البصاصين وعندما حاول بالقوة انهلت عليه ضربا، لكنهم ينحنون ويقبلون الأرجل خوفا على الفتات، وأنتما يا فاراس وراحال ألم تصرخا في وجه البصاصين الذين حاولوا أخذ كيس الدقيق من أحد الفقراء ووقتها عوقبتما بالجلد ولولا رأفتهم بكما لكنتما في السجن إلى الآن. والسؤال، ماذا فعل صاحب كيس الدقيق؟ ألم يذهب ويترككما للعقاب حتى لم تدمع عيناه دمعة واحدة عليكما.
قال كيروس:
- وأنت يا نيبال؟
- أنا أكره الذل والمهانة والفقر، أفعل أي شيء للخروج من هنا، وأنتم تعلمون ذلك جيدا! أفعل أي شيء!
قاطع فاراس:
- اهدأوا جميعا. ستثبت الأيام من منا على الصواب يا رفاقي. والآن ما الخطة يا كيروس؟
- تتحرك المجموعات في وقت واحد. المجموعة الأكبر تهاجم القصر وتقتل الوزير وتعتقل ابن الملك والوسطى منها تهاجم حرس المعبد وتحتل المعبد، ومجموعة أخرى تدخل قيادة الجيش وتعتقل القائد أو تقتله

ويكون هناك اتصال دائم بين المجموعات وسكان نصف المملكة الميت حتى يتحركوا لنصرتنا والوقوف بجانبنا.
قاطع نيبال:
- وإن فشلتم سيتركونكم للشنق.
رد فاراس:
- لا، لن يفعلوا
سأل راحال:
- ما الوقت المناسب للخروج؟
رد كيروس:
- الآن.
قاطع نيبال:
- لا، هناك وقت أفضل.
يريد نيبال أن يعطى نفسه فرصة للتفكير، مع من يكون، أو ماذا يفعل؟
رد فاراس:
- متى؟
- وقت خروج الملك الميت من المعبد إلى مقبرته وتنصيب الملك الجديد. حينها سيكون نصف المملكة الحي مشغولا بهذه المناسبة، القصر باستقبال الملك، الحرس بمراسم الحفل، السكان بتجهيز أنفسهم لحضوره.
- فعلا هذا الوقت المناسب.
سأل كيروس:
- متى؟ ومن سيخبرنا بميعاد تنصيب الملك؟
رد نيبال:
- أنا.
قال فاراس:
- اتفقنا، هيا يا صديقي جهز رجالك جيدا فلا وقت لدينا للكسل أو الخطأ. راحال، مهمتك الآن أهم. حذار أن يعلم أي أحد من البصاصين أو الوشاة بما سنفعله، وإلا سينتهي كل شيء قبل أن يبدأ. نيبال، مهمتك

معرفة ميعاد التنصيب وسريعا. أما أنا فمهمتي الآن أصعب، إيقاظ النائمين في مستنقع الذل والمهانة والحاجة. سأحدثهم وأحاورهم حتى لو كان الحل هو الصراخ في وجوههم صرخت. سأشعل قنديل الإنسانية الذي خبا من زمن في صدورهم وأرش عطر المعرفة على أجسادهم حتى يغتسلوا بها. نحن بهم وبدونهم لا شيء.

٢٣

أشباح الظلام تتسلق جدران البيوت، تعسكر في الطرقات لاحتلال جديد. أصوات الذئاب والضباع تأذن ببدأ معركة جديدة بين الظلام والصمت والفقر من ناحية وأشباه الأحياء في نصف المملكة الميت من ناحية أخرى. فاراس يبدأ مهمته الجديدة بالتسلل إلى البيوت وتحفيز الرجال والشباب. وبالرغم من حكمته وصبره ونظرته اللامعة وصوته الذي يجذب القلوب فما زالت عيون سكان نصف المملكة الميت مطفأة ونار قلوبهم خامدة وهمتهم مكسورة. ما زالوا راضين بالدنية من الحياة والفتات من الطعام. خوفهم الشديد على ما تبقى سلاسل من حديد تقيد خطواتهم، لكنه لا ييأس ولن ييأس حتى لو كانت حياته وحياة أصدقائه ثمنا لإيقاظ البركان الخامد داخلهم.

نيبال على باب المعبد الصغير اتخذ قراره لن يضحي بنفسه من أجل هؤلاء الموتى القابعين في بيوتهم المتهالكة، المستعبدين بالفقر، الراضين بالذل والهوان، الخائفين من سوط القهر حتى لو سلبهم أبناءهم وزوجاتهم. سأضحي بهم قبل أن يضحوا بي. يطرق باب المعبد الصغير بقوة. يفتح الكاهن الأصغر مستغربا قدومه في هذا الوقت من الليل، وقبل أن يسأل الكاهن عن سبب حضور نيبال، يباغته نيبال بالسؤال:
- من يدير شئون المملكة الآن سيدي؟
- الوزير.
- اذهب بي إليه وبسرعة.
- لماذا؟
- الثعابين خرجت من قبور الموتى وستبدأ زحفها قريبا إلى القصور.
- أي ثعابين؟
- نصف المملكة الميت.
- لا أفهم!
- الثورة سيدي.

- أي ثورة؟
- عبيد الفقر يخططون للثورة على نصف المملكة الحي، سيأتون على كل شيء، البساتين، القصور، البحر، حتى الشمس التي تشرق من هناك، يريدون سرقة ما ليس لهم، لا يؤمنون بأن الإله الأعظم جعلها هكذا، سيد وعبد، غني وفقير.
- وهل يجرؤون على ذلك؟ وكيف يخرج للتراب أنياب؟!
- خرجت يا سيدي أنياب ستقطع كل شيء، وأظافر ستنهش كل شيء. الأمر خطير يا سيدي، لا وقت للتفكير.
- سأدبر أمر لقائك بالوزير بأي طريقة، لكن لو كنت تكذب أيها العبد فرقبتك الثمن.
- ثق بي سيدي. ثق بي، لكن بسرعة فلا وقت لدينا، فالذئاب الجائعة أشد ضراوة من الذئاب الشبعانة.

٢٤

كالعادة منذ جاءت فاتنة إلى المعبد الكبير تحتل الوقت الأكبر من يوم الكاهن الأكبر. يجلسون سويا يتحدثون كثيرا عن حياتها. يعجبه ذكاءها وقدرتها على استخدام أسلحتها. كل يوم يعلمها شيئا عن المعبد، طقوس العبادة، تقديم القرابين. يقرأ معها الكتب القديمة عن تاريخ المملكة وطلاسم السحر والتكهن. أدخلها كل الحجرات الخاصة بالمعبد الواحدة تلو الأخرى حتى الحجرة المحرمة على كل من في المعبد، حجرة أعمال السحر والتكهن وبذلك أصبحت فاتنة الشخصية الثانية في المعبد. كل شيء يدور أمامها حتى ما يدور داخل أروقة القصر يخبرها به الكاهن الأكبر الذي يظهر لها كل يوم أنه الرجل الأول في المملكة، المتحكم في أمور بلاطها ومصير رجالها. يخلع من يريد ويأتي بمن يريد. من يدخل تحت عباءته ناج ومن يخرج منها هالك. تخضع له رقاب الناس لنيل البركة وتهابه الشياطين والجن خوفا من عقابه.

أدركت فاتنة أن سلطة المعبد أقوى من سلطة القصر، ووجودها هنا أهم من وجودها في القصر الملكي. إن تمكنت من تلابيب الكاهن الأكبر أصبحت المحظية الأولى في المملكة حتى ولو كانت القوة الثانية في المعبد. هي تعلم جيدا أن قوة المال والسلطة والدين، والدين أهمها وأقواها كلها هنا في قبضة هذا الرجل.

يدخل حارس المعبد على الكاهن الأكبر يطلب إذن الدخول إلى الكاهن الأصغر ونيبال اللذان ينتظران على الباب الرئيسي للمعبد،

- سيدي الكاهن، الكاهن الأصغر ومعه آخر بالباب يطلب الإذن بالدخول.

- ما الذي جاء به الآن؟! فلم يحن بعد وقت تقديم القرابين.

- أخبرني بأن الأمر خطير.

- أدخله، لكن بمفرده.

يعود حارس المعبد ليشير إلى الكاهن الأصغر بالدخول مانعا نيبال الذي ينتظر عند باب المعبد. يدخل الكاهن الأصغر ويجثو أمام الكاهن الأكبر طالبا مباركته التي يضعها عليه ثم يأمره بالوقوف. يفاجأ الكاهن الأصغر بفاتنة وقد ارتدت
عباءة الكهنة وغطت رأسها بوشاح المقربين منهم وعلى صدرها تميمة للإله الأعظم فتأكد أنها تمكنت من تلابيب الكاهن الأكبر وأصبحت من القوى المهمة في المعبد. يقطع الكاهن الأكبر صمت الكاهن الأصغر:

- تحدث أيها الكاهن، ما الأمر الخطير الذي جاء بك؟
- الثورة سيدي، ثورة الموتى.
- ثورة من؟
- نصف المملكة الميت يدبر لثورة علينا. الأموات يخرجون من قبورهم هناك، العظام نبتت لها أنياب وأظافر.
- الأموات لا يخرجون أيها الكاهن، حتى لو خرجوا، يخرجون للجحيم.
- لكنهم يخرجون الآن سيدي.
- من أخبرك بذلك؟ أهذا الرجل بالخارج؟
- نعم سيدي.
- وكيف عرف بالأمر؟
- لم يخبرني بشيء، أصر على إخبارك شخصيا.
- أحد البصاصين؟
- لا، أحد العبيد.
- هل جننت أيها الكاهن؟ تسمح لأحد العبيد بمرافقتك إلى هنا، إلى المعبد الكبير! ألا تعلم جزاء من يفعل ذلك؟
- سيدي الكاهن الأكبر، جاءني هذا العبد من فترة يشكو سحرا أصابه ولم يكن معه ما يقدمه للمعبد، فعالجته وأخذت عليه العهد يأتي بالقربان عندما يمتلكه وإلا.. ثم جاءني بهذا الخبر الخطير كقربان له لأتم شفاءه.
- كل هذا لن يمنع عنك العقاب!

تتدخل فاتنة في هذه اللحظة خوفا على الكاهن الأصغر من غضب سيده محاولة إصلاح الأمور:
- هل يأذن لي سيدي بالكلام؟
- تكلمي.
- الكاهن الأصغر أخطأ فعلا، لكن خطأه من شدة خوفه على المملكة. لم يقصد أبدا إهانة المعبد ولا تكسير مقدساته وقوانينه. هو خادمك المطيع الأمين دوما.
- لكنه أخطأ!
- سيدي إن لم تكن درجة أهمية الخبر أكبر بكثير من الخطأ، عاقبهم بما شئت. نسمع الخبر وبعدها حكم سيدي.
- حسنا، قم وأدخل العبد.

يسرع الكاهن الأصغر إلى الباب لإدخال نيبال آمرا إياه ألا يرفع رأسه مطلقا في حضرة الكاهن الأكبر، وأن يخبره بكل شيء وإلا فمصيره القتل. يدخل نيبال خافضا رأسه ثم يجثو على ركبتيه على بعد خطوات من مجلس الكاهن الأكبر.
قال الكاهن الأصغر:
- تكلم يا نيبال.
قال نيبال:
- مجموعة من الرجال تدبر لثورة على نصف المملكة الحي.
صاح الكاهن الأكبر غاضبا:
- مجموعة من العبيد أيها العبد، لا رجال هناك!
- معذرة سيدي، مجموعة من العبيد تدبر لثورة ضدكم، يقودهم ثلاثة.
ثم يبدأ نيبال بسرد القصة كاملة بأسماء أصدقائه ودور كل واحد منهم ومكان تدريبهم وعدد الرجال وأسلحتهم، كل شيء. ينصت الجميع، لا أحد يقاطعه، فالأمر جد خطير. انتهى نيبال من كلامه ثم أمرهم الكاهن الأكبر بالانصراف والانتظار خارجا في غرفة كبير الحرس حتى ينظر في الأمر.
ينظر الكاهن الأكبر إلى فاتنة بدهشة كبيرة مما سمعه من هذا العبد.

- ما رأيك؟
- العبد لا يكذب، علمت هذا من نبرة صوته.
- إذن فالأمر خطير.
- ليس الخطر في مجموعة العبيد سيدي. الخطر الأعظم إن تبعهم سكان النصف الميت. ثورة الجوع سيدي أشد قوة ودمارا من ثورة الحرية. الجائع يسرق، يقتل، يأتي على الأخضر واليابس، لن يهاب سيفا ولا رمحا، فالحياة عنده والموت سواء إن لم يحصل على ما يسد جوعه.
- ما العمل إذن؟
- سد أفواههم ببعض الفتات، منحة ليست دائمة. ضعها بين أيديهم يتقاتلون عليها، ووقتها سينسون كل شيء، ويتركون لك باب الانتقام من هذه المجموعة مفتوحا على مصراعيه.
- لم أشك لحظة في ذكائك يا فاتنة.
ينادي الكاهن الأكبر على الحارس، ويأمره باستدعاء الوزير فورا. يعود الحارس بعد فترة من الزمن طالبا الإذن لدخول الوزير. يدخل الوزير على الكاهن الأكبر الذي يخبره بالأمر الخطير ثم يتفقان سويا على أن من اكتشف الأمر هو الوزير ورجاله المخلصين في نصف المملكة الميت لمقايضة الأمير على بقاء الوزير في منصبه بعد أن نجحت خطة الأمير في استبدال معظم جنود المملكة في الداخل بجنود القائد دون وإضعاف سلطة الوزير ومكانته.

٢٥

فـاراس في نصـف المملكـة الميـت يحـاول تحفيز همـم الفقـراء وإيقـاظ عقـولهم وإقنـاعهم بـأن الحريـة أهـم مـن الخبز، وأنـه لـن يكسـر حـاجز الظلام إلا النور النابع من إيمانهم بإنسانيتهم... هتف محدثا إياهم:
- اصرخ في وجه الرعد يسكت. تشبث بأشجار الأمل الضاربة جذورها في أعماق الأرض تسلم من ريح اليأس. اصرخ بكل ما فيك من قوة.. الحرية تأتى بالخبز..
هتف أحد السكان:
- سيقتلوننا جميعا!
- وهل أنتم هكذا أحياء؟! يا إخوتي الموت على أبواب المجد خير من الموت في حظيرة الذل
يقول آخر:
- إن فشلنا فلن نجد ما نطعم به أبناءنا.
- وهل تجدون الآن؟!
صاح ثالث:
- نعم، نجد.
استنكر فاراس:
- الفتات!
- خير من لا شيء!
- هناك يملكون كل شيء وأنتم هنا خائفون على الفتات.
- هذه إرادة الإله الأعظم.
- الإلـه الأعظـم عـادل لا يرضـى بـالظلم. هـم هنـاك يملكـون كـل شـيء ويمنعون عنكم كل شيء، هل هذا عدل؟ هل هذه إرادة الإله الأعظم؟
- والكاهن الأكبر بشياطينه وجنه وسحره، من يقدر عليه؟
- لا جن ولا شياطين ولا سحر إلا في عقولكم، هذه الكذبة اخترعتموها أنتم ثم صدقتموها. المشكلة عندكم والحل في أيديكم.
- والأمراض التي تنهش أجسادنا، أليست من سحر الكاهن؟

- الأمـراض سـببها الفقـر والجهـل الـذي زرعـوه بيـنكم مـن زمـن طويـل وتحصدون مره الآن.
صاح آخر:
- ماذا تريد منا؟!
- كونوا سندنا وظهرنا والعصا التي نتكأ عليها!
وصاح آخر:
- من أنتم؟
- نحن أنتم، زرعكم وحصادكم، تجري في عروقنا دماؤكم تعطرنا رائحة عرقكم، ملامحنا منكم، وحزننا لكم وعليكم، نحن أبناؤكم.
- وإن فشلتم؟
- لن نفشل وأنتم معنا، أنتم ذراعنا القوية وسيفنا الحاد!
- وإن فشلنا؟
-: نلنا شرف المحاولة للخروج من حظيرة العبودية والذل ورسمنا لمن سيأتي بعدنا الطريق.
سجال طويل ما بين فاراس والناس في نصف المملكة الميت. استجاب له بعضهم والكثيرون ما زالوا خائفين على الفتات. لا مشكلة عند فاراس فشلال الثورة يبدأ من نبع صغير.

الجبل مارد بألف ذراع وألف قلب، ساقه في رحم الأرض ورأسه في عين السماء. قاس على من يستهين به وحنون على من يعطيه قدره. حاد كنصل السيف، لين كخد الزهرة. له بكاء لا يسمعه إلا محبوه وعواء يخاف منه كارهوه، كيروس مع الشباب في جوف الجبل يزيدهم حماسة وشجاعة. أصواتهم تخرس الذئاب. حركاتهم تزلزل الجبل. ركعت من بأسهم وقوتهم الجن والشياطين. ينتظرون ساعة الفصل بين موت يحيونه وحياة يتمنون الموت من أجلها.
قال كيروس محدثا الشباب عن الجبل:

- أعلم أنكم ألفتم عشرته وحزنتم على بكائه ووحدته. هو لكم الصديق والمأوى، الحبيبة والأمان. أنا ألفته مثلكم لا لأنه أحن علينا من "هناك" ، لكن لأنه قطعة من الوطن، والوطن منا لنا. يرونه حجرا ونراه قلبا ينبض ويشعر. جئناه لأننا في حاجة إليه وهو خير معين على الحاجة وسنتركه ونعلم أنه سيظل على العهد والانتظار.
ثم يكمل:
- قربت الساعة يا إخوتي لنضرب سلاسل العبودية بمطرقة الحرية، نهدم سجن الظلمة بمعول المعرفة. الوطن لنا جميعا والحرية لنا جميعا. حقوقنا واحدة وواجباتنا واحدة. لا فضل لهم علينا ولا فضل لنا عليهم. حبنا للوطن واحد بل نحن نحبه أكثر منهم لأننا نحبه رغم ما نعانيه فيه من فقر وجهل وظلم، نحبه رغم قسوته وضعفنا، غناه وفقرنا، اتساعه وضيقه علينا. نحبه لأنه قطعة منا ونحن نبته وحصاده وإن أبوا هناك. الحرية لنا كما لهم هناك. الحرية لنا..
صارخا فيهم فيرددوها وراءه:
- الحرية لنا.. الحرية لنا!
يكمل كيروس:
- اسمعوا يا رفاقي، اليوم التدريب الأهم والتجربة الأولى لتنفيذ ما تدربنا عليه في الفترة الماضية. حددت بعض المواقع في الجبل وأمنتها تأمينا شديدا ببعض الرجال منكم وجعلت هذا التامين سرا. الأن سأحدد لكم المواقع المطلوب منكم مهاجمتها والاستيلاء عليها وسأحدد لكل موقع مجموعة ووقتا للتحرك والوقت المسموح لكم للاستيلاء عليها. مجموعات التأمين ستقاومكم بكل قوة وعنف. لن يسمحوا لكم بالاستيلاء على مواقعهم. سيحاولون أسركم فابذلوا قصارى جهدكم واستجمعوا كل قواكم واستحضروا كل ما تعلمتموه. إخوتي، هذه أول تجربة وربما تكون الأخيرة. لا أخطاء. إتمام المهمة على أكمل وجه. حافظوا على أنفسكم وعلى زملائكم قدر الإمكان.
يبدأ كيروس في تحديد كل موقع والرجال الذين سيقومون بمهاجمته ثم يصرخ فيهم بصوته الجهوري:

- جاهزون يا أبطال؟
- جاهزون!
- انطلقوا!
يتحرك الرجال في خفة الغزلان وشراسة الأسود يحملون معهم أسلحتهم الخفيفة من سكاكين ونبال وحراب صغيرة صممت خصيصا لهذه المهمة وأدواتهم من حبال وخطافات. يستجمعون كل لحظة تدريب ويتذكرون أقرانهم الذين هلكوا بسبب الظلم والفقر والمرض والعبودية في مزارع ومحاجر الأغنياء "هناك".
راحال ما بين كيروس وفاراس يراقب الطرق ويلهي البصاصين ويحذر رفاقه. كلهم ينتظرون عودة نيبال ليخبرهم بميعاد دفن الملك وتنصيب الملك الجديد.

٢٦

قاعة الاجتماعات في القصر، الكاهن الأكبر والوزير وقائد الحرس في جهة، والأمير قاهر وصديقه القائد دون في جهة أخرى،
قال الأمير قاهر:
- ما الأمر سيدي الكاهن؟
رد الكاهن الأكبر:
- ليس أمرا عاديا بل أمرا شديد الخطورة.
- وما هو؟
أجاب الوزير:
- الثورة سيدي.
- ماذا؟ أحيلة جديدة من حيلك يا وزير؟
- ليس أنا من يصنع الحيل والمؤامرات.
- إذن من الذي يصنعها ويتقنها يا وزير؟؟
قاطع الكاهن الأكبر:
- اهدأوا جميعا، لا وقت لدينا لكل هذا الكلام. الأمر خطير. أيها الأمير قاهر، هناك مؤامرة تحاك في نصف المملكة الميت اكتشف أمرها الوزير عن طريق أحد رجاله المخلصين هناك، تكلم يا وزير.
قال الوزير:
- هل يأذن لي سيدي الكاهن باستدعاء رجلي من الخارج لأني أعلم جيدا أن الأمير لن يصدقني.
رد الكاهن الأكبر:
- حسنا.

اتفق الوزير مع نيبال في وقت سابق من لقاء الأمير قاهر على أن نيبال من رجال الوزير الموجودين في نصف المملكة الميت على أن يضمن له مكانا في القصر وهذا جل ما يتمناه نيبال في هذا الوقت.

يدخل نيبال قاعة الاجتماعات وبعد إلقاء التحية يبدأ بسرد القصة بكل تفاصيلها أمام الأمير وقائده وبعد أن انتهى أشار له الوزير بالخروج.
قال الأمير قاهر في ذهول:
- أيحدث هذا في مملكة أبي؟!
رد الكاهن الأكبر:
- نعم يحدث، ولولا الوزير ورجاله المخلصين لنال منا العبيد. أعلم جيدا أنهم لن ينتصروا، لكن ما سوف يحدث من فوضى واضطراب وقتل في نصف مملكتنا سيهز عرشك أيها الأمير ويعطي فرصة للطامعين أن يثبوا ليعتلوا كرسي العرش سواء كان ذلك بالثورة مع العبيد أو بإثارة أصحاب سلطة المال علينا. ألا يستحق هذا شكر الوزير؟
- أشكره على ماذا، هذا من صميم عمله!
- وهو الوحيد الذي يتقن هذا العمل يا أمير، إذن وجب عليك شكره.
- يجهضها أولا ثم يكون الشكر.
- للإجهاض شكر آخر، أما الآن نشكره على إخلاصه في عمله. وخاصة في نصف المملكة الميت.
- شكرا.
- لا ليس هكذا.
- كيف إذن؟!
- تعدني الآن بأن يظل الوزير في مكانه بعد تنصيبك ملكا للمملكة.
- ماذا؟!
- هو الأصلح يا أمير.
أحس الأمير بأن الكاهن مصر على رأيه خاصة بعد أن قوى الوزير موقفه بعد اكتشافه ما يدبر في نصف المملكة الميت وأنه لا مفر من الاستجابة لأمر الكاهن، لكنه لن يخرج خاسرا أيضا.
- سيظل الوزير وزيرا في عهدي لكن بشرط..
- وما هو؟
- أن يصبح القائد دون قائد جيش المملكة بالكامل. قائد الحرس الداخلي وقائد الجيش الخارجي.

- لا مشكلة.
ينتفض قائد الحرس غاضبا:
- ماذا؟ بعد كل هذه السنوات من العمل والإخلاص لكم أعزل بهذه البساطة!
- كيف تجرؤ على الكلام دون إذني! اسكت!
- لا لن أسكت!
- لن تسكت؟!
ينادي الكاهن بغضب شديد على حرس المعبد المرافقين له فيدخلون سريعا فيأمرهم باعتقال قائد الحرس وحبسه في سجن المعبد. بعدها يهدأ الجميع ثم يكمل الأمير قاهر حديثه:
- ما العمل إذن يا وزير الدولة؟
- كما علمتم أنهم سيتحركون في يوم تنصيب الملك الجديد. سنتركهم يتحركون كأننا لا نعلم شيئا وعندما يصلون إلى الأماكن التي خططوا لاقتحامها سيجدون جنودنا في استقبالهم. أعدك سيدي الأمير لن يبقى منهم أحد وسأعلق رؤوس قادتهم في ساحتنا.
- لا، أريدها معلقة هناك وسط قبورهم.
- الخوف أن يثور معهم سكان نصف المملكة الميت.
- لا تخف، أنا أعرف كيف أسكتهم. الحل عندي يا أمير فلا تقلق.

٢٧

أخبر نيبال أصدقاءه بموعد دفن الملك وميعاد تنصيب الملك الجديد على عرش المملكة بعد عودته من نصف المملكة الحي والاتفاق مع الوزير على كل شيء.
في الميعاد المحدد يتحرك كيروس برجاله حسب خطته الموضوعة للهجوم على الأماكن التي حددها لهم. الرجال في قمة حماسهم وشجاعتهم. يهبطون من الجبل في خفة الغزلان، وشراسة الأسود. يتحركون في طرق مختلفة لتضليل البصاصين.
يخرج فاراس من وادي الموت متجها إلى نصف المملكة الميت لتحفيزهم أكثر وحثهم على الخروج في الوقت المناسب وراء الشباب الثائرين.
شيء غريب، الكثير من العربات التي تجرها الخيول محملة بالدقيق والأرز والزيت واللحم، منتشرة في الطرقات الضيقة. يهرول نحوها سكان نصف المملكة الميت. يخطفون من أيدي الجنود ما يقدرون عليه، يأخذونه لبيوتهم ثم يعودون مرة أخرى، يتشاجرون سويا ويسبون بعضهم البعض طمعا في المزيد، حتى عندما يزداد عددهم حول العربة يلقي الجنود قطعا من النقود على الأرض يتصارعون عليها. العربات لا تفرغ وعبيد الفتات لا يشبعون.
فاراس وسط البيوت المتهالكة يصرخ، يا إخوتي، اليوم يوم الحسم، يوم الحرية. لا أحد يسمع فيصرخ أكثر، الخبز لا يصنع الحرية. الحرية من تصنع الخبز. ألم العبودية أشد فتكا من ألم الجوع. يا إخوتي، إخوتكم هناك من أجلكم، من أجل حريتكم، إنسانيتكم. ثوروا لهم بل ثوروا معهم. لا أحد يسمع. الفقراء مشغولون كما كانوا دوما بالفتات والرجال هناك يدخلون نصف المملكة الحي. الهدوء شديد والسكون يبعث الخوف في النفوس. السحابة السوداء التي صنعها الكاهن الأكبر بالسحر فوق المعبد الكبير كأنها شيطان بألف ذراع وألف سيف، لكن لا شيء سيوقفهم. تتحرك كل مجموعة لاحتلال الموقع الذي حدده لها كيروس. مجموعة القصر بقيادة كيروس متوجهة لاحتلال القصر . بوابة القصر

مفتوحة، حرس البوابة غير موجودين. تدخل المجموعة ساحة القصر، لا وجود لحرس القصر. حرس المعبد كأن الكاهن ألقى عليهم تعويذة فأخفاهم. المجموعة المكلفة باحتلال قيادة الجيش الداخلي، المبنى الموجود بجانب القصر ومعها راحال تدخل المبنى بلا مقاومة. المنطقة المحيطة بكل هذه المواقع هادئة ساكنة، أبوابها موصدة وشرفاتها مغلقة كأنهم أموات. وقبل أن يعي كيروس أنهم سقطوا في فخ الوشاية ومصيدة الطمع. انقض عليهم جنود المملكة فقتلوهم عن بكرة أبيهم لم يبقَ منهم أحد. جثث الشباب ودماؤهم في كل مكان، في ساحة القصر والطرقات المحيطة به، أمام باب المعبد الكبير، في مبنى قيادة الجيش. أرواح طاهرة حلقت في رحاب السماء وأجساد طاهرة لوثتها أرض نجسة هناك في نصف المملكة الحي والعبيد هنا في نصف المملكة الميت، يتقاتلون من أجل الفتات. لا أذن تسمع ولا عين ترى ولا قلب يئن لدماء أخوانهم. فقط بطن نبت لها ألف ذراع ليجمع أكثر وأكثر.

فرغت العربات من الفتات وما زال العبيد يتقاتلون.

يدخل الكاهن الأكبر نصف المملكة الميت على عربته التي يجرها أربعة من الخيول القوية، عن يمينه فاتنة وعن يساره الكاهن الأصغر. تسير خلفها عربة الوزير يجرها أيضا أربعة من الخيول القوية يجلس بها الوزير وعن يمينه القائد دون القائد الجديد للجيش الداخلي والخارجي، وعدد كبير من الجنود. تهتز الأرض تحت أقدامهم. حينها يتوقف القتال بين عبيد الفتات.

فاراس على ركبتيه بعد أن قيده الجنود لكنه ما زال رافعا رأسه. ينزل قائد الجيش من على حصانه ممسكا برأسي كيروس وراحال ثم يأمر أحد الجنود بتعليقهما على عمودين في وسط نصف المملكة الميت. يصرخ فاراس صرخة أسكتت الكون من حوله،

- واصديقاه، لم تقتلكما السيوف ولا السهام، بل قتلكما العبيد، عبيد الفتات!

ينزل الكاهن الأكبر من عربته مقتربا من فاراس في كبرياء المنتصر. يدفع البصاص فاراس من ظهره قائلا له:

- اركع بين يدى مولاك.
- أنا لا أركع إلا للحق!
- أي حق؟
- الحق الموجود ليجلد ظهر الباطل.
- أي باطل؟!
- الباطل الموجود فيكم كي يملأكم حتى تنتفخوا، تنتفخوا، تنفجروا كالفقاعة حين يعربد فيها الإظفر.
- هل آن أوان الفقاعة؟ أم إن الزمن طويل بين أيادينا نسلخ منه الساعات لتنجب أعواما وعقودا وقرونا. نمسك بين أصابعنا كل ستائر هذا الليل الدائم كي نسدلها فوق الشمس هنا فلا تنجب يوما صبحا.
- الشمس ستنجب يوما صبحا وظلام الليل سيرحل، عذب من شئت واقتل من شئت فسيأتي يوم ينبت هذا الوحل صغيرا يطعن قلب الظلمة.
- صغيرا..
يضحك الكاهن بصوت مرتفع.. كما أنبتكم.
- نعم، إن كنا لم نستطع، فسيستطيع هو.
- صغير الأشياء لن يفسد طعم الأشياء.
- أحيانا تنتقل العدوى من إصبع للقدم فتبتر للساق فتقطع للجسم فيعدم.
- لا، لن أترك هذا الأصبع ينقل عدواه إلينا سأقطعه كما قطعت رؤوس أصدقائك.
- قطعت رؤوسهم لكن أرواحهم ستنشر عدوى المعرفة والنطق إلى الأحياء هنا، تتجول كسحابة صيف تنشر ظل الكلمات الممطرة العدل على المظلومين.
- سأقطع رأسك أيضا لتلحق بهم في الجحيم.
- كذبت، هم الآن في نعيم البراح وراحة الحرية. انظر فوقك ستراهم يلتحفون الضوء ويمتطون الغيم ويضحكون ضحكة تخيف كل أشباح الظلام مثلك. ارفع رأسك وانظر ولا تخفضها أبدا لأنهم سيسقطون

عليك من السماء في أي وقت. ينزعون روحك السوداء الخائفة ويطهرون جسد المملكة من أمثالك أيها الشيطان في عباءة العابد.
صرخ الكاهن غاضبا للبصاص:
- اقطع رأسه!
فيضرب البصاص رأس فاراس بالسيف ثم تعلق بجانب رأسي إخوته.
يخرج موكب السادة إلى نصفهم الحي منتصرين، تاركين نصفهم الميت، يتقاتلون على الفتات تحت رؤوس إخوانهم، فلا عبيد الفتات ثاروا لإنسانيتهم، ولا عبيد السلطة رحموا الباحثين عن العدل.

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
او تخزينا دون إذن خطي من الدار